الباب الثاني

في بعض الآيات القرآنية التي سألناه عنها

وما يتعلق بذلك من تفسير اللغة السريانية

ثم تفسير فواتح السور نحو:

ص، وق، ويس، وطه، وكهيعص، وألم، وألر

وغير ذلك من أسرار الله تعالى

التي ستقف عليها في هذا الباب

ـ **فسألته** ﷺ عن قوله تعالى في قصة آدم وحواء، عليهما السلام: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٠].

فقلت: آدم نبي الله وحبيبه، كيف يجعل له شركاء؟

فقال ﷺ: هذا معاتبة الآباء بما فعلته الأبناء والأولاد، كمن له بستان فيه فواكه وثمار، فجاء إليه أولاد زيد فأخذوا من ثماره، وأفسدوا فيه، فجاء رب البستان إلى زيد وجعل يخاصمه ويعاتبه، ويقول له: أفسدت علي بستاني، وأكلت ثماري، وفعلت وفعلت.

فعلى شبه هذا الأسلوب جاءت القصة الشريفة، سمعت منه ﷺ هذا الجواب في بدايته.

* **قلت**: وهذا قول حبر هذه الأمة عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ نقله الحافظ السيوطي في «الدر المنثور في تفسير القرآن بالمأثور» واختار هذا القول السيد الجرجاني في «شرح المواقف» فرضي الله عن هذا السيد الجليل ما أعرفه بالله وبأنبيائه، واستدلوا على هذا التفسير بأن سياق آخر الآية إنما يصح في الكفار وبقراءة من قرأ: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ﴾ [الأعراف: ١٩٠] بالجمع فإنها أيضًا إنما تصح في الكفار، والله تعالى أعلم.

ـ **وسألته** ﷺ عن قوله تعالى حكاية عن الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠].

فقلت: إن فيه ضربًا من الغيبة، والملائكة ـ عليهم السلام ـ معصومون.

فقال ﷺ: إنه ليس بغيبة وحاشاهم من ذلك، فإنهم عباد الله المكرمون، وإنما هذا الكلام خرج منهم مخرج من قال: أتجعل فيها من هو محجوب، وعندك من ليس بمحجوب يصلح ليكون فيها وهو نحن، فإنا نشاهدك ونعرف قدرك فلا نعصي أمرك، والمحجوب لا يعرف قدرك فيعصي أمرك، فكأنهم قالوا: أتجعل فيها من لا يعرفك ونحن نعرفك، وهذا منهم إخبار عما انتهى إليه علمهم، وبحسب ما عندهم.

فلذا قال تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٣٠] أي: ما ظننتموه من أن المحجوب لا يمكن أن يعرف قدري، وأنه لا يعرف قدري إلا من يشاهدني، هو منتهى علمكم، وعلمي فوق ذلك، فإني أقوي المحجوب، وأزيل الستر بيني وبينه حتى تحصل له مني المعرفة ويظفر مني بعلم ما لا تطيقونه، ولذا قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:٣١].

فقلت: فهل المخاطب في هذه الآية جميع الملائكة، أو ملائكة الأرض فقط؟

فقال ﷺ ونفعنا به: هم ملائكة الأرض فقط.

* **قلت**: وهذا قول طائفة من المفسرين، منهم حبر هذه الأمة عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وانظر تفسير الثعلبي وغيره.

ثم تكلم ﷺ **في أمر الملائكة ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وفي أمر إبليس، وما يتعلق** بالقصة، وذكر كلامًا العقول من ورائه محجوبة فلذا لم نكتبه، والله تعالى أعلم.

وسمعته ﷺ **يقول**: إنما فهم الملائكة أن بني آدم يكونون محجوبين عن ربهم تعالى، قائمين على أنفسهم، مستبدين برأيهم، حتى قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ من قوله تعالى: ﴿خَلِيفَةً﴾ [البقرة:٣٠] فإن الخليفة شأنه الاستقلال والاستبداد والانقطاع عن غيره، فينسب لنفسه التدبير والعلم بالعواقب، والنظر في المصالح، ويقطع نفسه عن ربه تعالى، وفي ذلك هلاكه وحتفه، فمن لفظ «الخليفة» أخذوا أن الآدمي محجوب عن الله تعالى، والله تعالى أعلم.

ـ **وسألته** ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر:٥٥].

فقلت: إن الآية تقتضي أن بعض ما أنزل إليه بأحسن، مع أن القرآن كله أحسن.

وذكرت له أجوبة العلماء ﷺ:

منها: إن من ظلم يجوز له الانتقام لقوله تعالى: ﴿فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:١٩٤] والأحسن له الصبر لقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل:١٢٦] فكأنه يقول: اتبعوا العفو دون العقوبة، فالعقوبة حسنة والعفو أحسن.

ومنها: إن المراد بالأحسن الناسخ، والحسن المنسوخ.

ومنها: إن الله تعالى حكى لنا عن عباده أن منهم من أطاع ومنهم من عصى، فنتبع من أطاعه فهو الأحسن.

ومنها: إن المراد اتبعوا المأمور به دون المنهي عنه.

ومنها: إن المراد اتبعوا العزائم دون الرخص، فالأحسن هو العزائم، والحسن هو الرخص.

ثم قلت: إن هذه الأوجه لا مناسبة فيها للآية.

أمّا الأول: فإن سياق آخر الآية يقتضي أن من لم يتبع الأحسن يخاف أن تنزل به قارعة من عذاب الله، وأنه من الساخرين والكافرين، ومن لم يعف لا يكون هذا حكمه.

وأمّا الثاني: فإن أريد أن المنسوخ حسن باعتبار اتباعه فليس كذلك؛ إذ ما نسخ العمل به لا يجوز اتباعه، وإن أريد من حيث التلاوة فهو والناسخ من الأحسن.

وأمّا الثالث: فإن من عصى لا يحل اتباعه فضلاً عن أن يحسن، ومثله يقال في المنهي عنه.

وأمّا الرخص فإنها وإن كانت حسنة لكن مرتكبها لا يستحق الأوصاف التي في آخر الآية، بمثابة من لم يعف في الوجه الأول فإنه أيضًا لا تتنزل عليه الأوصاف التي في آخر الآية.

وبالجملة: فالأحسن في الأول والخامس لا يناسبان آخر الآية، والأحسن في الأوجه

الباقية فأشكل الأحسن في الآية.

فقال ﷺ: ليس ما ذكر في الأوجه السابقة سر الآية ولا نورها، وإنما سرها ونورها: واتبعوا يا معشر عبادي أحسن ما أنزل إليكم من ربكم كتابًا ورسولاً، فالقرآن هو أحسن كتاب أنزل إلينا من عند الله، والنبي ﷺ هو أحسن رسول جاءنا من عند الله، فالحسن هو الكتب الإلهية غير المبدلة والرسل الذين أرسلهم الله تعالى قبل نبينا ﷺ.

فقلت لشيخنا ﷺ: الكتب الإلهية منها التوراة والإنجيل، وزيادة «إليكم» تنافي حمل الأحسن على ما ذكرتم؛ لاقتضائها أن الحسن أنزل إلينا كالأحسن مع أن التوراة أنزلت إلى اليهود، والإنجيل أنزل إليهم وإلى النصارى.

فقال ﷺ: بعثة نبينا محمد ﷺ عامة للعرب ولليهود وللنصارى وغيرهم، والأحسن الذي هو القرآن أنزل إلى جميعهم، والحسن الذي هو الكتب الإلهية أنزل لكل قوم منها ما يخصهم، فللعرب شريعة إسماعيل، ولليهود التوراة، وللنصارى الإنجيل، فالحسن أنزل لهم في الجملة على هذا الفرض وهو ظاهر.

* **قلت**: وقد صدر جماعة من المفسرين بهذا القول، وأن المراد بالأحسن هو القرآن، وتمام تقريره ما أوضحه الشيخ ﷺ ولا شك في مناسبته لسياق آخر الآية، فإن من لم يتبع القرآن والرسول وكفر بهما مستحق للأوصاف التي في آخر الآية، والله تعالى أعلم.

ـ **وسألته** ﷺ عن حكمة تقديم السمع على البصر في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:٧٨].

وفي قوله: ﴿أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ [المؤمنون:٧٨].

وفي قوله: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء:٣٦] إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي قدم السمع فيها على البصر، مع أن البصر أعظم فائدة وأعم نفعًا، فإن فائدة النهار والليل يختص بها البصير، وأمّا السميع الذي لا بصر له فإنه يستوي عنده الليل والنهار، والنور والظلمة، والشمس والقمر، ولا يهتدي لشيء من أنوار هذه النيرات.

وكذلك العجائب التي في مصنوعات الله تعالى فإن غالبها إنما هو في صور

المخلوقات وحسن تركيبها، والصور إنما تدرك بالبصر، فحسن التركيب الذي في خلقة بني آدم وسائر الحيوانات وأنواع النباتات والأزهار إنما يدرك بالبصر، وكذلك خلق السماوات وكونها مرفوعة بغير عمد، وتزيينها بالنجوم، إلى غير ذلك من الفوائد التي لا تعد ولا تحصى إنما يدرك بالبصر، فالذي ظهر لنا أن البصر أقوى فكان حقه أن يقدم على السمع.

فقال ﷺ: كل ما ذكرتم في البصر صحيح، وفي السمع فائدة واحدة تقوم مقام ذلك كله، وتزهو على جميع ما ذكرتم، وهي أن الرسول ﷺ ومرسله ﷻ وسائر الأمور الغيبية التي يجب الإيمان بها إنما تدرك بالسمع، ويلزم من ذلك أن جميع الشرائع متوقفة على السمع.

وبيان ما ذكرناه: إنا لو فرضنا بني آدم لا سمع عندهم أصلاً، فإذا جاءهم رسول من عند الله فقال لهم: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الأعراف:١٥٨] فهذا الصوت لا يرى ولا سمع لهم حتى يسمعوا مقالته فيبقى [الرسول] عاطلاً، فإذا قال لهم: وآية صدقي معجزة كذا وكذا لم يسمعوه فيبقى عاطلاً، فإذا قال لهم: وقد أمركم الله ﷻ أن توحدوه ولا تشركوا به شيئًا لم يسمعوه وبقي أيضًا عاطلاً، فإذا قال لهم: وأمركم أن تؤمنوا بي وبجميع رسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر لم يسمعوه وبقي أيضًا عاطلاً، فإذا قال لهم: وأوجب عليكم من الأمور كذا وكذا، وحرم عليكم منها كذا وكذا، وأباح لكم منها كذا وكذا، لم يسمعوه وبقي عاطلاً.

فظهر أنه لو لم يكن سمع ما عرف رسول ولا مرسل، ولا وقع إيمان بغيب ولا بشهادة، ولا صح اتباع شريعة، ويلزم ألّا يكون ثواب ولا عقاب، فترتفع الجنة ونعيمها، والنار وجحيمها؛ لأنه لا ثواب ولا عقاب حتى يبعث الرسول؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء:١٥] والبعثة لا تصح مع انتفاء السمع.

وبالجملة: فبنو آدم لو لم يكن لهم سمع لسقط التكليف وكانوا في درجة البهائم، فبالسمع استوجبوا الدرجة العليا، ولحق من لحق منهم بالملأ الأعلى، فظهر أن السمع أقوى فائدة وأعم نفعًا؛ لأن أسرار الربوبية موقوفة عليه، فلذا قدم في الآيات السابقة التي سبقت مساق الامتنان؛ لأن المنة به أقوى من المنة بالبصر، والله تعالى أعلم.

* قلت: فانظر ـ وفقك الله ـ إلى حسن هذا الجواب، فإني لما سمعته جعلت أتعجب من نفسي، كيف خفي علي هذا الجواب مع ظهوره الغاية، ولا هادي إلا الله ﷻ.

ـ وسألته ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران:١٣٥] وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء:١١٠] ما المراد بـ«يظلم نفسه»؟ فإن ظلم النفس يصدق بما قبله الذي هو عمل السوء في الآية الثانية، وفعل الفاحشة في الأولى، فالظلم أعم مما قبله، والعام لا يعطف بـ«أو».

وذكرت له ما قال المفسرون في ذلك، وأن بعضهم حمل عمل السوء والفاحشة على الكبيرة، وظلم النفس على الصغيرة.

وظهر لي أن يحمل عمل السوء والفاحشة على المعصية مطلقًا، وظلم النفس على الإصرار على المعصية؛ لأنه لا عمل فيه في الظاهر؛ يعني: إن من أصر على الزنا مثلاً فإنه لا يصدق عليه أنه فاعل للزنا وممكن للنفس من شهواتها، ولكنه عازم على ذلك، وبهذا العزم والإصرار صار ظالمًا لنفسه حيث عرضها للعقاب ولم تظفر بشهواتها.

فتكلمنا في الآية كلامًا كثيرًا، وذكر ﷺ أجوبة ثلاثة وخضنا في الكلام فيها، ثم سكت لحظة من الزمان قليلة، فقال ﷺ: يقول لكم سيدي محمد بن عبد الكريم البصري: إن سبب نزول هذه الآية هو ما كانت عليه الجاهلية، والعرب في ذلك الوقت من المجادلة عن الظالم والذب عنه، وتبرئته مما رمي به، وهم يعلمون أنه فعل ذلك، كأن يسرق واحد من قوم ويعلمون به ثم يجادلون عنه وينفون عنه السرقة مثلاً، فالسارق هو الذي فعل الفاحشة والسوء، والمجادل هو الذي ظلم نفسه بشهادة الزور وقول الباطل.

وقال لي ﷺ: إن سيدي محمد بن عبد الكريم يعرف كيف يتكلم.

فأعجبني هذا التفسير غاية لمناسبته سياق الآية: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ [النساء:١١٠] حيث يقول تعالى فيها: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ [النساء:١٠٧]، ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [النساء:١٠٩].

وكنا حين الخوض معه في الآية الكريمة خارج باب الحديد أحد أبواب فاس ـ حرسها الله تعالى ـ وسيدي محمد بن عبد الكريم المذكور كان بالبصرة، فسمع كلامنا وعرف مرادنا، فأجابنا من مكانه، فرضي الله عن أوليائه الكرام، وسيأتي بيان سر سماعه كلامنا مع البعد الكثير، والله تعالى أعلم.

ـ **وسألته** ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح:٢٦] ما معنى «كانوا أحق بها وأهلها» مع أنه لا أحقية ولا أهلية قبل الإسلام؟

فقال ﷺ: الأحقية والأهلية بحسب الوعد الأول والقضاء السابق قبل خلق المخلوقات، والله تعالى أعلم.

ـ **وسألته** ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ [النجم:٥٠] هل كانت عاد أخرى ثانية؟ وذكرت اضطراب كلام المفسرين، فإنهم يقولون: إن هودًا عليه السلام هو الذي بعث إلى عاد، وأنه كان قبل إبراهيم عليه السلام بكثير، ثم ذكروا في قصة هلاك قومه وفادة نفر منهم إلى حرم الله مكة يستسقون، ومكة إنما بناها إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما الصلاة والسلام ـ فأشكل أمر القصة على كثير من الناس:

حتى ذهبت طائفة إلى أنه لم يكن إلا عاد واحدة، وإنما وصفت بالأولى رعاية لثمود، فالثانية هي ثمود.

وذهبت طائفة أخرى إلى تعدد عاد، فالأولى هي التي أرسل إليها هود وعذبت بالريح، وعاد الثانية أرسل إليها نبي آخر وعذبوا بغير الريح، وهم الذين وفد بعضهم إلى مكة، ولم يعينوا النبي ولا العذاب، ويشكل عليهم ما في سورة الأحقاف، فإن القصة فيها أصحاب الوفد وعذابهم بالريح وصاحبهم هود لقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ [الأحقاف:٢١] **وقال في آية أخرى:** ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف:٦٥].

وإنما قلنا: إن القصة في سورة الأحقاف لأصحاب الوفد، لما أخرجه أحمد بإسناد حسن عن الحارث بن حسان البكري، قال: «خرجت أنا والعلاء بن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ ...» وفيه: «فقلت: أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوفد عاد، فقال: وما وفد عاد؟ وهو أعلم بالحديث ولكنه يستطعمه، فقلت: إن عادًا قحطوا فبعثوا قيل بن عنز إلى معاوية ابن بكر بمكة يستسقي لهم، فمكث شهرًا في ضيافته، فلما كان بعد شهر خرج فاستسقى

لهم، فمرت به سحابتان فاختار السوداء منهما، فنودي: خذها رمادًا لا تبقي من عاد واحدًا»[١] وأخرج الترمذي، والنسائي، وابن ماجه بعضه، وانظر ابن حجر في سورة «الأحقاف»[٢].

وفي رواية أخرى: «خرج قيل بن عنز ومرثد بن سعد في سبعين من أعيانهم، وكان إذ ذاك بمكة العمالقة وسيدهم معاوية بن بكر، فذكر القصة إلى أن قال في آخرها: فقال مرثد بن سعد: يا قوم، إنكم لا تسقون بدعائكم حتى تطيعوا رسولكم، فقال قيل لمعاوية: احبسه عنا لا يخرج معنا، فإنه قد آمن بهود وصدقه[٣].

فقال ﷺ: عاد الثانية أرسل إليها هود ليجدد شرع من قبله من الأنبياء المرسلين إليهم، وهو الذي قص الله علينا قصته في القرآن، وهو الذي وفد قومه إلى مكة وعذبوا بالريح العقيم، وهو من ذرية إسماعيل عليه السلام ونسبه هود بن عابر بن الشياع بن الحارث بن كلاب بن قيدار بن إسماعيل[٤] وليست عاد الثانية كلها من ذرية إسماعيل، بل هود وعشيرته فقط، وقيل فيه: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف:٦٥] تغليبًا؛ لأنه كان هو وعشيرته يساكنونهم ويرحلون معهم، ومن هؤلاء شداد بن عاد الذي له الخيمة العظيمة ذات العماد.

قال: والعلماء يظنون أن ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ [الفجر:٧] مدينة مبنية بالذهب على صفة الجنة في كلام طويل [لهم] وليس كذلك، بل «إرم» اسم قبيلة عاد، و«ذات العماد» نعت للقبيلة؛ أي: صاحبة العماد لهذه الخيمة التي لكبيرهم، أو المراد عماد جميع خيامهم، فإني رأيت مسكنهم ووصفه بقريب مما وصف به العلماء الأحقاف.

قال: وهو مسيرة تسعة أيام، وكبيرهم يسكن في وسط الأرض، وكان من قصده يمشي حافيًا عاري الرأس مسيرة أربعة أيام ونصف من كل ناحية بين الخيام؛ لقوة العمارة فيها وكثرة الخلائق مع ضيقها عنهم، وأرسل الله تعالى إليهم مياهًا وعيونًا تسيح على وجه

---

(١) أخرج بعضه الترمذي (٣٥٨٤)، وأحمد (١٥٩٩٦)، والنسائي (١٥٣٣).

(٢) انظر: فتح الباري (٨/ ٥٧٩).

(٣) أخرج القصة ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٥/ ٥٢٣)، والبغوي في «معالم التنزيل» (١/ ٢٤٣).

(٤) انظر: التعريف بالأنساب لأبي الحسن اليمني القرطبي (ص٣٣).

الأرض من ناحية جبال بعيدة عن بلادهم يزرعون عليها.

قال: وخيمة كبيرهم مساحتها في الأرض قدر رمية بسهم، وأوتادها وأعمدتها مطبقة بالذهب الخالص، وحبالها من الحرير، وقد رأيت قطعًا من ذهبها باقية إلى الآن مدفونة في أرضهم، وجميع خيمهم مطبقة [بالمنف][1]، ولم يكن في ذلك الزمان إلا الأبيض منه فيه يبطنون، وإلى هؤلاء القوم أرسل الله هودًا الذي سبق نسبه.

* **قلت**: وما ذكره في شأن المدينة المسماة بـ«إرم ذات العماد» ورد ما قيل فيها، إليه ذهب جهابذة العلماء كالحافظ ابن حجر في «شرح البخاري» فإنه بعد أن أشار إلى قصة المدينة المذكورة قال: وهي مروية من طريق عبد الله بن لهيعة.

ونقل عن مجاهد ما يؤيد التفسير الثاني في ذات العماد، قال مجاهد: معناه أنهم كانوا أهل عمود ـ أي: خيام ـ وذكر في ذلك أقوالاً أخر، فانظرها في سورة «الفجر»، وما قاله ﷺ في نسب هود محض كشف وعيان، فإنه أميّ لا يعرف تاريخًا ولا غيره، فلا ينبغي لأحد أن يعارضه بما قال أهل التاريخ في نسب هود؛ لأنه مبني على خبر الواحد، ومع ذلك فقد اضطرب خبر الواحد في نسب هود، فقيل في نسبه: هود بن عبد الله بن رباح بن الجارود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح، وقيل: هود بن شارخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام فهو على هذا ابن عم أبي عاد، قالوا: وإنما جعل من عاد وإن لم يكن منهم؛ لأنهم أفهم لقوله وأعرف لحاله وأرغب في اقتفائه.

قال ﷺ: وأمّا عاد الأولى فإنهم كانوا قبل قوم نوح عليه السلام وأرسل الله إليهم نبيًا يسمى «هُويد» بهاء مضمومة قريبة من همزة بين بين، وواو ساكنة سكونًا ميتًا، بعدها ياء ساكنة سكونًا حيًّا.

قال ﷺ: وهو رسول مستقل بشرعه بخلاف هود الذي أرسل إلى عاد الثانية، فإنه مجدد لشرع من قبله من المرسلين.

قال ﷺ: وكل رسول مستقل فلابد أن يكون له كتاب.

قال: ولسيدنا هويد المذكور كتاب وأنا أحفظه كما أحفظ جميع كتب المرسلين.

---

(١) في (ب): بالجوخ.

فقلت له: وتعدها؟

قال: أحفظها و[لا أعدها][1]، اسمعوا مني، ثم جعل يعدها كتابًا كتابًا.

قال: ولا يكون الولي وليًّا حتى يؤمن بجميع هذه الكتب تفصيلاً ولا يكفيه الإجمال.

فقلت : هذا لسائر الأولياء المفتوح عليهم؟

فقال ﷺ: بل لواحد فقط، وهو الغوث.

فاستفدتُ منه في ذلك الوقت أنه ﷺ هو الغوث، وعلومه ﷺ دالة على ذلك، فإني لو قيدت جميع ما سمعت منه لملأت أسفارًا، وكم مرة يقول: جميع كلامي معكم على قدر ما تطيقه العقول.

قال: وأهلك الله عادًا الأولى أصحاب هويد بالحجارة والنار، وذلك أن الله تعالى أرسل عليهم حجارة من السماء، فاشتغلوا بها وجعلوا يهربون منها، فأخرج الله لهم نارًا فأحرقتهم.

وسمعته ﷺ **يقول**: كان قبل نوح سبعمائة رسول من الأنبياء وفي قصصهم من العجائب الكثيرة، وإنما لم يقص الله علينا في كتابه العزيز منها شيئًا لعدم اشتهار أهلها في أزمنة الوحي.

فقلت: فما معنى قوله في حديث الشفاعة في صفة نوح عليه السلام وأنه أول الرسل؟

فقال ﷺ: المراد أنه أول الرسل إلى قوم كافرين، ومن قبله من المرسلين أرسلوا إلى قوم عقيدتهم صحيحة.

فقلت: فلم [عوقب][2] قوم هويد بالحجارة والنار إذا كانوا مؤمنين؟

فقال ﷺ: كانت عادته تعالى مع القوم الذين قبل نوح أن يهلكهم على ترك أكثر القواعد وإن كانوا على العقائد.

---

(١) في (ب): وأعدها.

(٢) في (ب): عذبوا.

ـ وسألته ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء:٧٨-٧٩].

فقلت: استدل بهذه القصة من قال: إن المصيب واحد، وإن المخطئ معذور، بل مأجور إذا بذل اجتهاده ووسعه، فإن داود عليه السلام حكم بإعطاء الغنم لأرباب الحرث يأخذونها قبالة حرثهم الذي أفسدوه، وسليمان عليه السلام حكم بإعطاء الغنم لرب الحرث يستغلها، وأعطى الحرث لرب الغنم يقوم عليه حتى يصلحه كما كان قبل رعي الغنم، فإذا صلح دفع الحرث لأهله ودفعوا له غنمه، فصوب الله سليمان حيث قال: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ [الأنبياء:٧٩].

ـ واستدلوا أيضًا بقصة أخرى وقعت بينهما: وهي قصة المرأتين اللتين خطف الذئب ولد الكبرى منهما، فأخذت ولد الصغرى وادعت أنه ولدها، وترافعتا إلى داود عليه السلام فقضى به للكبرى؛ لأنها ذات الحوز، وقضى سليمان بأن يقسم الولد بينهما نصفين، فلما سمعت الصغرى بقسم الولد نصفين سلمت للكبرى وقالت هو ولدها، وجعلت الكبرى تطلب قسمه فقضى به للصغرى، وقال للكبرى: لو كان ولدك ما طلبت قسمه.

ـ وبقصة ثالثة وقعت بينهما: وهي أن امرأة ادعى عليها أنها مكنت كلبًا من نفسها، فأمر داود برجمها حيث شهد الشهود بذلك، ثم إن سليمان وقع له مع الصبيان وهو يلعب نظير القصة، فحكم بتفريق الشهود ففرقوا، فاختلف قولهم، فرجع داود إلى تفريق الشهود.

ـ وبقصة رابعة وقعت بينهما: وهي أن امرأة وجد في فرجها ماء، فادعى أنه مني رجل وأنها زانية، فأمر داود عليه السلام برجمها، فأمر سليمان عليه السلام أن يؤخذ ذلك الماء ويطبخ فإن عقد فهو ماء أبيض وإلا فهو مني، فأخذوه فطبخوه فوجدوه ماء بيضة، وعلموا أن المرأة مكذوب عليها. انظر ابن حجر في كتاب «الأحكام».

فقال ﷺ: كأنكم تقولون: أخطأ داود وأصاب سليمان ـ عليهما السلام ـ وهل يعتقد الفقهاء مثل هذا في الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وهم صفوة الله من خليقته، وهم عنده أفضل من الملائكة ومن كل عزيز؟ فإذا جاز عليهم الخطأ وصار يصدر منهم فأي ثقة تقع لنا بهم حيث صاروا مثلنا، فمعاذ الله أن يكون داود أخطأ.

أمّا توجيه القصة الأولى: فلأن داود عليه السلام حكم بصميم الحق الذي هو غرمه قيمة الحرث، وإنما أمر بدفع الغنم؛ لأنهم لم تكن عندهم عين في ذلك الزمان، وإن كانت فهي قليلة، فكانوا يتعاملون بالغنم والمواشي لكثرتها عندهم، فلذلك أمر بدفع الغنم ولم يأمر بدفع العين، وأمّا سليمان عليه السلام فإنه حكم بالصلح ورأى أن يدفع منفعة الغنم وغلتها من سمن ولبن وصوف في قيمة الحرث حتى يرجع الحرث ـ وهو العنب ـ إلى الحالة الصالحة، وهذا إنما يكون مع التراضي، ولا يقال لمن حكم بصميم الحق: إنه أخطأ وإن الذي حكم بالصلح هو الذي أصاب.

وأمّا توجيه الحكم في القصص الباقية: فإن داود عليه السلام حكم بما يقتضيه ظاهر الحال في القصص الثلاث وهو الواجب في الحكم؛ إذ لا يجوز للحاكم أن يحكم بغيره، وسليمان عليه السلام تحيل على الباطن حتى رده ظاهرًا، فحكم به حينئذ، ولا يقال في الحكم الأول: إنه أخطأ وإن الثاني هو الصواب، بل كل منهما صواب، وإن كان الأول يجب نقضه عند ظهور الباطن، فنقضه لا يدل على أنه كان حين التنفيذ خطأ، فهو بمثابة عدول شهدوا شهادة زور بأمر فأمضاه القاضي بناء على شهادتهم، فذلك هو الواجب عليه، وليس ذلك بخطأ منه، فإن تاب الشهود ورجعوا واعترفوا بالزور وجب على القاضي أن يحكم بما يقتضيه رجوعهم، ولا يلزم أن يكون حكمه الأول خطأ.

قال رضي الله عنه: وأعرف رجلاً من فاس ـ يعني: نفسه ـ ذهب إلى أخ له في الله من أهل البصرة ـ يعني: سيدي محمد بن عبد الكريم السابق ـ وكان قاضيًا، فجلس معه، فجاء رجلان يختصمان فقال أحدهما: إن خصمي أخذ مني ياقوتة تساوي مالاً عظيمًا عريضًا وهي عنده، فقال خصمه: إني أعطيته التفتيش في [لباسي][1] وجميع ما عليّ وأزيد الحلف بالله ما هي عندي.

فأراد القاضي أن يحكم بذلك، فقال له جليسه: لا تحكم بينهما، ثم التفت الجليس إلى الخصمين فقال: إن هذا ـ يعني: القاضي ـ أخونا في الله، وقد صنع لنا طعامًا، فنريد منكما أن تحضراه، فإذا أكلنا الطعام نظر القاضي بعد ذلك في أمركما.

قال: فذهبنا مع القاضي، فلما حضر الطعام جعل الجليس والقاضي يرمقان المدعى عليه حينئذ.

---

(١) في (ب): ثيابي.

قال: فتنخم ومسح نخامته في [سبتية كانت معه][1].

قال: فأخذها من يده، فإذا الياقوتة خرجت مع النخامة، فأعطيناها للمدعي.

قال ﷺ: فهذه حيلة في ردِّ الباطن ظاهرًا، ولو حكم أولاً بالتفتيش واليمين لكان حكمه صوابًا، وإن كان يعلم بطريق الكشف أنها عند المدعى عليه، فإن الله لم يكلفه بذلك، وجليسه استعمل الحيلة حتى رد الباطن ظاهرًا.

فقلت: فهل القاضي كان يعلم بالكشف أنها عند المدعى عليه؟

فقال ﷺ: نعم كان يعلم ذلك هو والجليس.

قال: فهذا نظير ما وقع بين هذين النبيين الكريمين في القصص الثلاث.

ففي القصة الأولى: حكم به داود للكبرى لأجل الحوز، والحوز يقضي به.

وحكم في الثانية: بالرجم لأجل الشهادة.

وفي الثالثة: حكم به أيضًا لأجل وجود العلامة.

وسليمان تحيل في القصص الثلاث حتى رد الباطن ظاهرًا، والله تعالى أعلم.

* **قلت**: فرضي الله عن هذا الشيخ ما أعلمه!.

وقد قال ابن حجر: قال ابن المنير: والأصح أن داود عليه السلام في واقعة الحرث أصاب في الحكم، وسليمان عليه السلام أرشد إلى الصلح، ولا يخلو قوله تعالى: ﴿**وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا**﴾ [الأنبياء:٧٩] أن يكون عامًا في واقعة الحارث فقط، وعلى التقديرين فيكون أثنى على داود فيها بالحكم والعلم، فلا يكون من قبيل عذر المجتهد إذا أخطأ؛ لأن الخطأ ليس حكمًا ولا علمًا. انتهى.

وهو ينحو إلى ما قال الشيخ ﷺ فيها ـ أي: في واقعة الحرث ـ وأمّا ما ذكره في القصص الثلاث بعدها فهو الحق الذي لا شك فيه ولا يمكن المحيد عنه.

وقد أشار إلى مثله في قصة أخرى الإمام الشافعي، وأبو عبد الله [البخاري][2]، وغيرهما من الأكابر، والله تعالى أعلم.

---

(١) في (ب): منديله.

(٢) في (أ): البلخي، والصواب هو المثبت.

ـ وسألته ﷺ عن معنى الساق في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ [القلم:٤٢].

فقال ﷺ: الساق بلغة السريانية هو الجد ضد الهزل.

فقلت: وهو في لغة العرب أيضًا كذلك، يقولون: انكشف الحرب عن ساق: أي: عن جد.

فقال لي: فهو إذًا من توافق اللغتين.

* قلت: وما رأيت من يعرف السريانية وجميع اللغات التي لبني آدم وللجن وللملائكة وللحيوانات مثله.

ـ فسألته ﷺ عن اسم سيدنا عيسى عليه السلام مشيخًا، هل هو بالخاء المعجمة أو المهملة؟

فقال: هو بالمعجمة، وهو لفظ سرياني، ومعناه بلغتهم الكبير.

ـ وسألته ﷺ عن معنى الإنجيل.

فقال: هو لفظ سرياني، ومعناه بلغتهم: نور العين.

ـ وسألته ﷺ عن التوراة.

فقال: هو لفظ عبراني، ومعناه بلغتهم: الشريعة والكلام الحق.

ـ وسألته ﷺ عن اسم نبينا ومولانا محمد ﷺ مشفح، هل هو بالفاء أو بالقاف؟ فإن العلماء اختلفوا فيه.

فقال: هو بالفاء من الشفح، بمعنى الحمد، وهو لفظ سرياني.

ـ وسألته ﷺ عن اسمه ﷺ المنحمنا، فإن العلماء اختلفوا في ضبطه[1]، فإن منهم من يقول: إنه بضم الميم الأولى وكسر الثانية، ومنهم من يقول: إنه بفتح الميم الأولى وكسر الثانية.

---

(١) المنحمنا بالسريانية هو سيدنا محمد ﷺ و هو بالرومية البرقليطس. كما في «سيرة ابن هشام» (٣/ ٦٣)، و«الشفا» (١/ ١٧٦)، و«عيون الأثر» (١/ ١٤٢).

فقال ﷺ: هو بفتح الميمين معًا الأولى والثانية، وهما كلمتان لا كلمة واحدة، فالـ«مَنْ» بفتح الميم وإسكان النون كلمة، و«حَمَنًّا» بفتح الحاء والميم وشد النون كلمة أخرى.

ومعنى الكلمة الأولى: النعمة التي لها نفع ظاهر ونفع باطن:

ـ **فالنفع الظاهر**: هو ما كان للذوات في عالم الأشباح.

ـ **والنفع الباطن**: هو ما كان للأرواح في عالم الأرواح، فهو نعمة سقى منها جميع المخلوقات وجميع العوالم، ولا شك أنه ﷺ كذلك.

ومعنى الكلمة الثانية: وهي كالصفة للأولى أن النعمة السابقة بلغت إلى الغاية وارتفعت إلى النهاية، فكأنه يقول في النبي ﷺ: إنه النعمة التي بلغت الغاية، ولم يدركه سابق ولا لاحق، وهو لفظ سرياني.

وقد قدم علينا بعض أصحابنا من أخيار [أهل] «تلمسان» فأخبرني أنه سمع بعض من حج بيت الله الحرام يقول: إنه زار قبر سيدي إبراهيم الدسوقي ـ نفعنا الله به ـ فوقف عليه الشيخ سيدي إبراهيم الدسوقي ـ نفعنا الله به ـ وعلمه دعاء، وهو هذا:

بسم الإله الخالق الأكبر، وهو حرز مانع مما أخاف منه وأحذر، لا قدرة لمخلوق مع قدرة الخالق، يلجمه بلجام قدرته، أحمى حميًّا أطمى طميًّا، وكان الله قويًّا عزيزًا، ﴿حم * عسق﴾ [الشورى:١-٢] حمايتنا، ﴿كهيعص﴾ [مريم:١] كفايتنا، ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ [البقرة:١٣٧] ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فقال له سيدي إبراهيم: ادع بهذا الدعاء ولا تخف من شيء.

فقال لي صاحبنا التلمساني، وهو الحاج الأبر، التاجر الأطهر، سيدي عبد الرحمن بن إبراهيم، من أولاد ابن إبراهيم القاطنين بـ«تلمسان»: إن أخي الحاج محمد بن إبراهيم لما لم يعرف معنى هاتين الكلمتين ـ وهما أحمى حميًّا وأطمى طميًّا ـ امتنع من هذا الدعاء وقال: لا أدري ما معناهما، ولعل أن يكون فيهما ما أكره، فسألني عن معنى الكلمتين، فسألت شيخنا ﷺ عن معناهما.

فقال ﷺ **بديهة**: لا يتكلم أحد اليوم على وجه الأرض بهاتين الكلمتين، فمن أين لك بهما؟ فحكيت [له] الحكاية.

فقال ﷺ: نعم سيدي إبراهيم الدسوقي من أكابر الصالحين، ومن أهل الفتح الكبير، وهو وأمثاله الذين يتكلمون بهاتين الكلمتين.

ثم قال ﷺ: هما كلمتان بلغة السريانية:

ـ أمّا أحمى: فمعناه: يا مالك، وفي سره: يا مالك الملك العظيم الأعظم الحي القيوم.

وحميثًا: إشارة إلى مملكته، فهو بمنزلة من يقول: يا مالك الأسرار، يا مالك الأنوار، يا مالك الليل والنهار، يا مالك السحاب المدرار، يا مالك الشموس والأقمار، يا مالك العطاء والمنع، يا مالك الخفض والرفع، يا مالك كل حي، يا مالك كل شيء، وفي هذا الاسم سر عجيب لا يطيق القلم ولا العبارة تبليغه أبدًا.

ـ وأمّا قوله «أطمى»: فهو بمنزلة من يصفه تعالى بالعظمة والكبرياء، والقهر والغلبة، والعز والانفراد في ذلك كله، وكأنه يقول: يا عالم كل شيء، يا قادر على كل شيء، يا مريد كل شيء، ويا مدبر كل شيء، ويا قاهر كل شيء، ويا من لا يتطرق إليه عجز ولا يتوهم في [تطرقه][1] نقص.

وطميثًا: إشارة إلى الأشياء التي يتصرف فيها وإلى الممكنات التي يفعل فيها ما يشاء ويحكم ما يريد ﷻ لا إله إلا هو، وفي هذا الاسم سر عجيب لا يطيق القلم تبليغه أبدًا، والله أعلم.

وسمعته ﷺ يقول: إن اللغة السريانية هي لغة الأرواح، وبها يتخاطب الأولياء من أهل الديوان فيما بينهم لاختصارها وحملها المعاني الكثيرة التي لا يمكن أداؤها بمثل ألفاظها في لغة أخرى.

فقلت: وهل تبلغها في ذلك لغة العرب؟

فقال ﷺ: لا يبلغها في ذلك إلا ما في القرآن العزيز، فإن لغة العرب إذا جمعت المعاني التي في السريانية وكانت بلفظ العرب كانت أعذب وأحسن من السريانية، والله أعلم.

وسمعته ﷺ يقول: إن اللغات كلها مطنبة بالنسبة للسريانية؛ لأن الكلام في كل لغة

---

(١) في (ب): تصرفه.

غير السريانية يتركب من الكلمات لا من الحروف الهجائية، وفي السريانية يتركب من الحروف الهجائية، فكل حرف هجائي في السريانية يدل على معنى مفيد، فإذا جمع إلى حرف آخر حصلت منهما فائدة الكلام، ومن عرف لأي معنى وضع كل حرف هان عليه فهم السريانية، وصار يتكلم بها كيف يحب، وارتقى بذلك إلى معرفة أسرار الحروف، وفي ذلك علم عظيم حجبه الله عن العقول رحمة بالناس؛ لئلا يطلعوا على الحكمة مع الظلام الذي في ذواتهم فيهلكوا ـ نسأل الله السلامة ـ والله أعلم.

وسمعته ﷺ يقول: إن اللغة السريانية سارية في جميع اللغات سريان الماء في العود؛ لأن حروف الهجاء في كل كلمة من كل لغة قد فسرت في السريانية ووضعت فيها لمعانيها الخاصة التي سبقت إليها الإشارة.

مثاله: «أحمد» يدل في لغة العرب إذا كان علمًا على الذات المسماة به، وفي لغة السريانية تدل الهمزة المفتوحة التي في أوله على معنى، والحاء المسكنة على معنى، والميم المفتوحة على معنى، والدال إن كانت مضمومة على معنى، وإن كانت مفتوحة على معنى آخر.

وهكذا «محمد» يدل في لغة العرب على الذات المسماة به، وفي السريانية تدل الميم على معنى، والحاء المفتوحة على معنى، والميم المشددة على معنى، والدال التي في آخره على معنى.

وهكذا زيد وعمرو ورجل وامرأة، وغير ذلك مما لا ينحصر في اللغة العربية، فكل حروفها الهجائية لها معان خاصة في اللغة السريانية، وكذا حكم كل لغة، فالفارقليط[1] وضع في لغة العبرانية علمًا على سيدنا محمد ﷺ وفي السريانية الهمزة التي في أوله تدل على معنى، واللام المسكنة تدل على معنى، والياء على معنى، وهكذا إلى آخر حروفه.

فالسريانية هي أصل اللغات بأسرها واللغات طارئة عليها، وسبب طروءها عليها الجهل الذي عم بني آدم؛ وذلك لأن مبنى وضع السريانية وأصل التخاطب بها المعرفة الصافية التي لا جهل معها حتى تكون المعاني عند المتكلمين بها معروفة قبل التكلم،

---

(١) الفارقليط أو البارقليط بالعربية (أحمد) وانظر: الفصول في السيرة لابن كثير (١/ ٢٣٨).

فتكفي إشارة ما في إخطارها في ذهن السامع، فاتفقوا على أن أشاروا إلى المعاني بالحروف الهجائية تقريبًا وقصدًا إلى الاختصار؛ لأن غرضهم الخوض في المعاني لا فيما يدل عليها، حتى إنه لو أمكنهم إحضارها بلا تلك الحروف ما وضعوها أصلاً، وهذا لا يقدر على التكلم بها إلا أهل الكشف الكبير ومن في معناهم من الأرواح التي خلقت عرافة دراكة، والملائكة الذين جبلوا على المعرفة، فإذا رأيتهم يتكلمون بها رأيتهم يشيرون بحرف أو بحرفين، أو بكلمة أو بكلمتين إلى ما يشير إليه غيرهم بكراسة أو كراستين.

إذا عرفت هذا علمت أنه لما عمَّ بني آدم الجهل كان ذلك سببًا في نقل الحروف عن معانيها التي وضعت لها أولاً وجعلها مهملة، فاحتيج في أداء المعاني إلى ضم بعضها إلى بعض حتى يحصل منها مجموع يسمى كلمة، فيدل على معنى من المعاني [الدائرة][1] عند أهل ذلك الوضع، فضاع بسبب جهل معاني الحروف ومعرفة أسرارها علم عظيم، ومع ذلك فإن أخذت تلك الكلمة التي في تلك اللغة وأردت أن تفسر حروفها بما كانت عليه قبل الوضع والنقل، وجدت في الغالب حرفًا منها يدل على المعنى الذي نقلت إليه لاتفاقه مع المنقول عنه، ووجدت باقي حروف تلك الكلمة يدل على معان أخر يعرفها السريانيون ويجهلها غيرهم، فالحائط مثلاً وضع في لغة العرب للسور المحيط بدار أو نحوها، والحاء التي في أوله تدل على ذلك في لغة السريانية، والماء مثلاً وضع في لغة العرب للعنصر المعروف، والهمزة التي في آخره تدل على ذلك، والسماء وضعت للجرم المعلوم، والسين التي في أوله تشير إلى ذلك، وهكذا من تأمل غالب الأسماء وجدها على هذا النمط ووجد غالب حروف الكلمة ضائعة بلا فائدة، والله تعالى أعلم.

وسمعته ﷺ **يقول**: إن سيدنا آدم ـ على نبينا وعليه السلام ـ لما نزل إلى الأرض كان يتكلم بالسريانية مع زوجته وأولاده لقربهم بالعهد، فكانت معرفتهم بالمعاني صافية، فبقيت السريانية في أولاده على أصلها من غير تبديل ولا تغيير إلى أن ذهب سيدنا إدريس ـ على نبينا وعليه السلام ـ فدخلها التبديل والتغيير، وجعل الناس ينقلونها عن أصلها ويستنبطون منها لغاتهم، فأول لغة استنبطت منها لغة الهند فهي أقرب شيء إلى السريانية.

قال: وإنما كان سيدنا آدم عليه السلام يتكلم بالسريانية بعد نزوله من الجنة؛ لأنها كلام أهل

---

(١) في (ب): الزائدة.

الجنة، فكان يتكلم بها في الجنة فنزل بها إلى الأرض.

فقلت: فقد ذكر المفسرون في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن:٣-٤] أن المراد بالإنسان آدم، والمراد بالبيان النطق بسبعمائة لغة أفضلها لغة القرآن.

فقال ﷺ: إن ذلك التعليم الذي وقع لآدم صحيح وهو كذلك يعرف تلك اللغات، ومن دونه من الأولياء يعرفها ولكن لا ينطق إلا باللغة التي نشأ عليها، وآدم إنما نشأ على لغة أهل الجنة وهي السريانية، والله تعالى أعلم.

* **قلت:** وهذا الكلام في غاية الحسن، ولا يرد عليه حديث ابن عباس مرفوعًا: «أَحِبُّوا الْعَرَبَ لِثَلَاثٍ: فَإِنِّي عَرَبِيٌّ، وَالْقُرْآنُ عَرَبِيٌّ، وَكَلَامُ أَهْلِ الْجَنَّةِ عَرَبِيٌّ»[1].

فإن العقيلي قال: لا أصل له، وعدَّه ابن الجوزي في «الموضوعات» وسألت عنه الشيخ ﷺ.

فقال: ليس بحديث ولم يقله النبي ﷺ.

وسمعته ﷺ **يقول:** من تأمل كلام الصبيان الصغار وجد السريانية كثيرًا في كلامهم؛ وسبب ذلك أن تعليم الشيء في الصغر كالنقش في الحجر، فكان آدم عليه السلام يحدث أولاده في الصغر ويسكتهم بها، ويسمي لهم أنواع المآكل والمشارب بها، [فنشأوا][2] عليها وعلموها أولادهم وهَلمَّ جرًّا، فلما وقع التبديل فيها وتنوسيت لم يبق منها عند الكبار شيء في كلامهم وبقي عند الصغار منها ما بقي.

وسرٌّ آخر: وهو أن الصبي ما دام في حال الرضاع، فإن روحه متعلقة بالملأ الأعلى، وفي ذلك الوقت يرى الصبي الرضيع منامات ولو رآها الكبير لذاب لغلبة حكم الروح في ذلك الوقت، وغلبة حكم الذات على الكبير، وقد سبق أن لغات الأرواح هي السريانية، وكما أن ذات الصبي ترى المنامات السابقة والحكم للروح، فكذلك قد تنطق بألفاظ

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٩/ ٦٩، رقم ٩١٤٧) قال الهيثمي (١٠/ ٥٣): فيه عبد العزيز بن عمران وهو متروك.

(٢) في (ب): فثبتوا.

سريانية والحكم للروح.

قال ﷺ: فمن أسمائه تعالى لفظة: «أغ» التي ينطق بها الصبي الرضيع، وهو اسم يدل على الرفعة والعلو، واللطف والحنانة، فهو بمنزلة من يقول: يا علي، يا رفيع، يا حنان، يا لطيف، وترى الصبي إذا فطموه يسمون له مثل الفول والحمص بلفظة: «بوبو» وهو موضوع في السريانية للحلو المأكول، ولذا يسمى له الثدي الذي يرضع منه بهذا الاسم أيضًا، وإذا أراد الصبي أن يتغوط أعلم أمه وقال: «عع» وهو موضوع في السريانية لإخراج خبث الذات.

والصبي يسمى له صبي آخر أصغر منه بلفظة: «مومو» وهو موضوع في السريانية للشيء القليل الحجم العزيز؛ ولذلك سمي إنسان العين باللفظة السابقة، وتضاف إلى العين فيقال: «مومو العين» أي: الشيء القليل فيها العزيز.

وتتبُّع بقية ألفاظ السريانية التي في كلام الصبيان يطول، والله تعالى أعلم.

وسمعته ﷺ **يقول**: لا أعرف أحدًا في هذا الحين وهو عام تسعة وعشرين ومائة وألف في يوم التروية منه من أهل المغرب يتكلم بالسريانية.

فقلت له: وسيدي منصور ـ وقد مات قبل ذلك ـ كان يتكلم بها أم لا؟

فقال ﷺ: نعم كان يتكلم بها، وسيدي عبد الله البرناوي كان يحسنها أكثر منه.

فقلت: فما سبب تعليمها؟

فقال ﷺ: كثرة مخالطة أهل الديوان ﷺ فإنهم لا يتكلمون إلا بها؛ لكثرة معانيها كما تقدم، ولا يتكلمون [بالعربية][1] إلا إذا حضر النبي ﷺ أدبًا معه وتوقيرًا؛ لأنها كانت لغته ﷺ حال حياته في دار الدنيا.

فقلت: فسيدي عمر الهواري وسيدي محمد اللهواج أكان يعرفانها أم لا؟

فقال: لا، والله تعالى أعلم.

ـ **وسألته** ﷺ عن سؤال القبر: هل يكون بالسريانية أم بغيرها؟وقد قال الحافظ

---

(١) في (ب): بالعبرية.

السيوطي في منظومته:

وَمِنْ غَرِيبِ مَا تَرَى الْعَيْنَانِ أَنَّ سُؤَالَ الْقَبْرِ بِالسُّرْيَانِي

قال شارحها: قال الناظم؛ يعني: في «شرح الصدور بأحوال الموتى والقبور»: وقع في «فتاوى» شيخ الإسلام علم الدين البلقيني أن الميت يجيب السؤال بالسرياني، قال الناظم: ولم أقف له على سند.

وقد سئل الحافظ ابن حجر عن ذلك فقال: ظاهر الحديث أنه باللسان العربي، ويحتمل مع ذلك أن يكون خطاب كل واحد بلسانه وهو متجه. انتهى.

فقال ﷺ: نعم، سؤال القبر بالسريانية؛ لأنها لغة الملائكة والأرواح، ومن جملة الملائكة ملائكة السؤال، وإنما يجيب الميت عن سؤالها روحه وهي تتكلم بالسريانية كسائر الأرواح؛ لأن الروح إذا زال عنها حجاب الذات عادت إلى الميت حالتها الأولى.

قال ﷺ: والولي المفتوح عليه فتحًا كبيرًا يتكلم بها من غير تعلم أصلاً؛ لأن الحكم لروحه، فما ظنك بالميت فلا صعوبة عليه في التكلم بها.

فقلت: يا سيدي، نريد من الله ثم منكم أن تمنوا علينا بذكر كيفية السؤال وكيفية الجواب باللغة السريانية.

فقال ﷺ: أمّا السؤال فإن الملكين يقولان له بلفظ السريانية: «مَّرَازْهُو» وضبطه بفتح الميم وبها تشديد ضعيف، وبفتح الراء المهملة وبعدها ألف، وبعد الألف زاي مسكنة، وبعد الزاي هاء مضمومة، بعدها واو ساكنة سكونًا ميتًا، ومن شاء أن يجعلها هاء واقفة ويجعل بعدها صلة هكذا فله ذلك.

ومعنى هذه الحروف المسئول بها يعرف بأصل وضع الحروف في اللغة السريانية.

فأمّا الميم المفتوحة: وهي الحرف الأول، فإنها وضعت لتدل على المكونات كلها والمخلوقات بأسرها.

وأمّا الحرف الثاني: وهو الراء، فإنه وضع للخيرات التي في تلك المكونات.

وأمّا الزاي: فإنها وضعت للشر الذي فيها.

وأمّا الهاء التي بعدها صلة: فإنها وضعت لتدل على الذات المقدسة الخالقة للعوالم كلها ﷻ لا إله إلا هو.

فظهر بهذا أنه أشير بالحرف الأول إلى سائر الكائنات.

وبالحرف الثاني إلى جميع الخيرات التي فيها، فيدخل في الخيرات سيد الوجود ﷺ وجميع الأنبياء، والملائكة ـ عليهم الصلاة والسلام ـ والكتب السماوية، والجنة، واللوح، والقلم، وجميع الأنوار التي في السماوات والأرضين، وما في العرش وما تحته وما فوقه، إلى غير ذلك من الخيرات.

وأشير بالحرف الثالث وهو الزاي إلى جميع الشرور، فيدخل في ذلك جهنم ـ أعاذنا الله منها ـ وكل ذات خبيثة شريرة كالشيطان وكل ما فيه شر.

وأشير بالحرف الرابع وهو الهاء الموصلة إليه تبارك وتعالى.

قال ﷺ: وعادة اللغة السريانية الاكتفاء بإرادة بعض المعاني من غير وضع ألفاظ تدل عليها، وذلك كالقسم والاستفهام والتمني وغير ذلك.

قال: فالاستفهام هنا مراد بقرينة السؤال من غير حرف دال عليه، فكأنه قيل: المكونات كلها والأنبياء والملائكة والكتب والجنة [والنار][1] وجميع الخيرات، والشياطين وسائر الشرور هل هو تعالى خالقها أم غيره؟

قال ﷺ: وأمّا الجواب فإن الميت إذا كان مؤمنًا فإنه يجيبها بقوله: «**مَرَادْأَزِيزْهُو**» وضبطه بفتح الميم وفيها تشديد ضعيف، وبعدها راء مفتوحة، بعدها ألف ساكنة، بعد الألف دال ساكنة، وبعد الدال همزة مفتوحة، وبعد الهمزة زاي مكسورة، بعدها ياء ساكنة سكونًا ميتًا، وبعد الياء راء ساكنة، وبعد الراء هاء موصولة بواو ساكنة سكونًا ميتًا.

ومعنى هذه الحروف: إن الحرف الأول أشير به كما سبق إلى المكونات كلها والمخلوقات بأسرها، وأشير بالحرف الثاني إلى نور سيدنا محمد ﷺ وإلى جميع الأنوار التي تفرعت منه كأنوار الملائكة والأنبياء والرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وأنوار اللوح والقلم والبرزخ وكل ما فيه نور.

---

(١) زيادة في (ب).

وإنما فسرنا هذا الحرف في الجواب بهذا التفسير وفسرناه في السؤال بالتفسير السابق؛ لأن المجيب من أمة النبي ﷺ فهو يريد أن ينخرط في سلكه ويدخل تحت لوائه، فلذلك يريد في جوابه بهذا الحرف المعنى الذي ذكرناه ولا يخالف تفسيره في السؤال بجميع الخيرات؛ لأن كل خير إنما تفرع من نور نبينا ﷺ.

قال ﷺ: وأشير بالحرف الثالث وهو الدال المسكنة إلى حقيقة جميع ما دخل تحت الحرف الذي قبله، فكأنه يقول: نبينا محمد ﷺ حق، وسائر الأنبياء حق، وسائر الملائكة حق لا شك في جميع ذلك، وجميع ما دخل تحت الحرف السابق، وأشير بالحرف الرابع وهو الهمزة المفتوحة إلى مدلول ما بعدها، فالهمزة المفتوحة في لغة السريانية من أدوات الإشارة كلفظة: «هذا» و«هذه» في العربية، والزاي التي بعدها وضعت لتدل على الشر كما سبق، فيدخل تحتها الظلام الأصلي وكل ظلام تفرع عنه، فهي أريد بها ضد ما أريد بالحرف الثاني، فيدخل فيها جهنم وكل ما فيه ظلام وشر، وأشار بالراء المسكنة إلى حقيقة كل ما يدخل تحت الحرف الذي قبله وهي الزاي المكسورة المشبعة بالياء الساكنة، وأشير بالهاء الموصولة إلى الذات العلية من حيث إنها خالقة ومالكة ومتصرفة، وقاهرة ومختارة.

فحاصل معنى الجواب: إنه قيل: جميع المكونات ونبينا الذي هو حق وسائر الأنبياء الذين هم حق، وكافة الملائكة الذين هم حق، وجميع الأنوار التي هي حق، وعذاب جهنم الذي هو حق، وكل الشر الذي هو حق، هو ﷻ خالقها ومالكها ومتصرف فيها، المختار فيها وحده لا معاند له، ولا شريك، ولا رادّ لحكمه فيها.

قال ﷺ: فإذا أجاب الميت بهذا الجواب الحق قال له الملكان، عليهما الصلاة والسلام: «نَاصِرْ» وضبطه بفتح النون في أوله، وبعدها ألف، وبعد الألف صاد مكسورة، وبعد الصاد راء ساكنة، ومعناه يعلم مما وضعت له حروفه في السريانية.

فالحرف الأول: وهو «نَا» بالنون المفتوحة بعدها ألف للنور الساكن في الذات المشتعل فيها.

والحرف الثاني: وهو الصاد المكسورة وضعت لتدل على التراب، والراء الساكنة تدل على حقيقة المعنى السابق، فمعنى هذا الكلام حينئذ: نور إيمانك الساكن في ذاتك الترابية؛ أي: التي أصلها من التراب صحيح حق مطابق لا شك فيه، فهو قريب من قوله

في الحديث: «نَمْ صَالِحًا، قَدْ عَلِمْنَا إِنْ كُنْتَ لَمُوقِنًا»(١) والله تعالى أعلم.

ـ وسألته ﷺ عن كلمات من القرآن اختلف العلماء فيها: هل هي سريانية أم لا؟

فمنها: «أسفارًا».

قال الواسطي في «الإرشاد»: هي الكتب بالسريانية.

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك قال: هي الكتب القبطية، قاله في «الإتقان في علوم القرآن».

فقال ﷺ: هي سريانية، وهي الكتب كما قال الواسطي، رحمه الله.

ومعنى الكلمة تلك: محاسن الأشياء التي ليست في طوق البشر؛ لأن الهمزة المفتوحة إشارة لما يليها كما سبق، والسين المسكنة وضعت لمحاسن الأشياء، والفاء المفتوحة اسم لما ليس في طوق البشر، والراء المفتوحة إشارة أخرى إلى تلك المحاسن، فكأنه يقول: إن الكتب فيها هذه المحاسن التي لا تطاق، والله تعالى أعلم.

ومنها: «الربانيون».

قال الجواليقي: قال أبو عبيدة: العرب لا تعرف الربانيون، وأحسب اللفظة عبرانية أو سريانية.

وجزم أبو القاسم بأنها سريانية، قاله في «الإتقان».

فقال ﷺ: اللفظة سريانية، ومعناه: الذين فتح الله عليهم في العلم من غير تعلم، وهي مركبة من ثلاث كلمات: «ربا» و«ني» و«يون».

فشرح الكلمة الأولى: إن الراء المفتوحة إشارة للخير الكثير الذي دلت عليه الباء المشددة، فكأنه يقول: هذا خير كثير.

وشرح الكلمة الثانية: إن النون المكسورة إشارة للقرب.

وشرح الكلمة الثالثة: إن الياء المضمومة إشارة إلى الشيء الذي لا يثبت على حالة

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٣٤٥، رقم ٢٦٩٧٠)، والبخارى (٦/ ٢٦٥٧، رقم ٦٨٥٧)، ومسلم (٢/ ٦٢٤، رقم ٩٠٥).

كالبرق والنور، والنون المفتوحة إشارة إلى الخير الساكن في الذات المشتعل فيها، فكأنه يقول: ذلك الخير القريب مني الذي هو في ذوات أهل الفتح نور من الأنوار وسر من الأسرار، وهو ساكن في ذواتهم مشتعل فيها، والله تعالى أعلم.

ومنها: «هيت لك».

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس: «هيت لك» قال: معناه هلم لك بالقبطية.

وقال الحسن: هو بالسريانية كذلك أخرجه ابن جرير.

وقال عكرمة: هو بالحورانية كذلك أخرجه أبو الشيخ.

وقال أبو زيد الأنصاري: هو بالعبرانية وأصله: «هيتله» أي: تعاله. قاله في «الإتقان».

فقال ﷺ: ليس بسرياني، والله تعالى أعلم.

ومنها: «شهر».

ذكر الجواليقي أن بعض أهل اللغة ذكر أنه سرياني.

فقال ﷺ: ليس بسرياني، والشهر في لغة السريانيين اسم للماء.

* **قلت**: ومن عرف تفسير حروفه لم يشك في ذلك، والله تعالى أعلم.

ومنها: «عدن».

ذكر ابن جرير أن ابن عباس سأل كعبًا عن جنات عدن، فقال: جنات كروم وأعناب بالسريانية.

وذكر ابن [جرير][1] في «تفسيره»: إنها بالرومية، قاله في «الإتقان».

فقال ﷺ: هي سريانية، وذكر في تفسير اللفظة كلامًا عاليًا.

ومنها: «رهوًا».

قال الواسطي في قوله تعالى: ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾ [الدخان:٢٤] أي: ساكنًا

---

(١) في (ب): جوير. والصواب المثبت.

بالسريانية. وقال أبو القاسم: أي سهلاً بالقبطية.

فقال ﷺ: هي سريانية، واللفظ يدل على القوة التي لا تطاق، فإذا قلنا: فلان رهو؛ أي: قوي لا يطاق، وإذا قلنا: هذا من القوم الرهو؛ أي: من القوم الذين لا قبل لأحد بهم.

* **قلت**: والمعنى حينئذ ظاهر، ومن عرف تفسير حروف الكلمة لم يشك فيما ذكره الشيخ ﷺ والله تعالى أعلم.

ـ **وسألته** ﷺ عن ألفاظ من هذا النمط فأجابني عنها: وتركت كتبها هنا خشية الملل والسآمة.

ولما سمعت منه تفسير كل حرف من الكلمة السريانية المتقدمة علمت أنه إنما أجابني عن الألفاظ السابقة من نحو: «مشقع» و«مشيخًا» و«الإنجيل» و«المنحما» و«آحمى حميثًا» وغير ذلك مما سبق على سبيل التقريب، فطلبت منه ﷺ تفسير كل كلمة على حسبما وضعت لها حروفها، فشرح ذلك كله ـ ولله الحمد ـ كلمة كلمة وحرفًا حرفًا، فتركت ذكر ذلك خشية الطول [والملل]، والله تعالى أعلم.

وسمعته ﷺ **يقول**: لا يعرف اللغة السريانية إلا الغوث والأقطاب السبعة الذين تحته، وقد علمها لي سيدي أحمد بن عبد الله في نحو من شهر، وذلك سنة خمس وعشرين؛ يعني: ومائة وألف.

* **قلت**: وهذا الكلام سمعته منه في رابع النحر سنة تسع وعشرين ومائة وألف، ومراده بسيدي أحمد بن عبد الله الذي كان غوثًا قبله كما سبق ذكره. وسيأتي أنه من العشرة الذين ورثهم الشيخ ﷺ وزاد في آخر ذي القعدة سنة تسع وراثة رجل آخر من كبار الأولياء كما سمعت ذلك منه، واسم الرجل الولي سيدي إبراهيم للز بسكون الميم بين لامين مفتوحتين وفي آخره زاي، كذا ضبطه الشيخ ﷺ وذلك الوقت الذي كان يعلمه سيدي أحمد بن عبد الله السريانية كان أول فتحه، فعلمه السريانية لعلمه بأنه يصير قطبًا، فإنه تقطب بعد ذلك بقليل.

ومما يدل على أنه لا يعرفها إلا خواص الأولياء الذين أشار إليهم شيخنا ﷺ ما سيأتي في تفسير فواتح السور من النصوص المتظافرة بذلك عن فحول الأولياء ﷺ وقد

علمني ﷺ أصل وضع الحروف في اللغة السريانية في يوم التروية سنة تسع وعشرين، ففهمت ذلك ـ ولله الحمد ـ في يوم واحد.

فقال ﷺ: أنا ما تعلمتها إلا في شهر، وأنت تعلمتها في يوم واحد، فقبلت يده الكريمة ﷺ

وقلت: هذا من بركتكم وحسن تفهيمكم للأشياء، والله تعالى أعلم.

ـ وكنت أتكلم معه ذات يوم في آخر رمضان سنة تسع وعشرين في تفسير: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير:١] فسألته عما اشتهر من أن لكل كلمة في القرآن ظاهرًا وباطنًا.

فقال ﷺ: ذلك حق، فلقوله تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير:١] ظاهر وباطن، فظاهرها يتكلم على آخرها، وباطنها يتكلم على أولها.

فقلت: ما مرادكم بالآخر؟

فقال ﷺ: ما يقع في المحشر يوم القيامة، ومرادنا بالأول ما وقع في عالم الأرواح.

ثم تكلم على شيء مما في عالم الأرواح، فسمعنا منه العجب العجاب وأتى بما بهر العقول، وهو من أسرار الله التي لا تكتب.

ـ **ثم سألته** عن الآية التي ظاهرها في عالم الأرواح نحو: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف:١٧٢] فأين باطنها؟

فقال ﷺ: ما سبق في العلم الأزلي والتقدير الأولي.

وعن الآية التي هي نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء:١٤٥] فما معنى باطنها؟

فقال ﷺ: الظلام الذي كان في عالم الأرواح ومنه نشأت جهنم ـ أعاذنا الله منها ـ فللمنافقين فيه مقام يضاهي مقامهم في جهنم؛ أي: لأرواحهم مقام في ذلك الظلام يضاهي مقام أشباحهم في جهنم، نسأل الله السلامة.

فقلت: وهل لمعرفة هذا الباطن من سبب؟

فقال ﷺ: لا يدرك إلا بالكشف، لكن من عرف السريانية وأسرار الحروف أعانه ذلك على فهم باطن القرآن عونًا كثيرًا، وعلم ما في عالم الأرواح، وما في هذه الدار، وما في الدار الآخرة، وما في السماوات، وما في الأرضين، وما في العرش وغير ذلك، وعلم أن معاني القرآن العزيز التي يشير إليها لا نهاية لها، فعلم معنى قوله تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨] والله تعالى أعلم.

ـ وسألته ﷺ عن القرآن العزيز: هل هو مكتوب في اللوح المحفوظ باللغة العربية؟

فقال ﷺ: نعم وبعضه بالسريانية.

فقلت: وما هذا البعض؟

فقال ﷺ: فواتح السور.

فقلت: هذه ضالتي التي كنت أنشد منذ سنين، وذلك أني اجتمعت معه ﷺ ولله الحمد وله الشكر، أول ما اجتمعت معه في رجب سنة خمس وعشرين، فسايرته في الكلام وسألته عن أمور تتعلق بالولاية، فسمعت منه ما بهرني، فلما رآني استحسنت أجوبته.

قال ﷺ: سل عن كل ما بدا لك؟.

ـ فسألته ﷺ عن فواتح السور، فقلت له: ما معنى: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص:١]؟

فقال ﷺ: لو علم الناس معنى «ص» والسر الذي يشير إليه ما اجترأ أحد على مخالفة أمر ربه أبدًا، ولم يفسره لي.

ـ ثم سألته عن معنى: ﴿كهيعص﴾ [مريم:١].

فقال لي ﷺ: فيها سر عجيب، وكل ما ذكر في سورة «مريم» من قصة سيدنا زكريا، وسيدنا يحيى، ومريم، وولدها عيسى، وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب وموسى، وهارون، وإدريس، وآدم، ونوح، وكل قصة ذكرت في السورة بعد ذلك كله داخل في معنى «كهيعص» وبقي من معناها أكثر مما ذكر في السورة.

قال ﷺ: وهذه الرموز مكتوبة في اللوح المحفوظ، وكل رمز منها يكتب معه

تفسيره، فالرموز أشكالها عظيمة وتفسيرها يكتب فوقها مرة، وتحتها أخرى، ومرة في وسطها.

قال ﷺ: وما شبهت ذلك إلا بما يفعله العدول إذا ذكروا متخلف الهالك، فإنهم إذا ذكروا ذلك واستوعبوه حصلوه في حروف فوقه برسم الزمام، ففواتح السور مثل ذلك الرسم، وما في السورة مثل التفسير له، وهي عادة اللوح المحفوظ يترجم برموز ثم يشتغل بتفسيرها، فإذا فرغ منها ترجم برموز غيرها ثم يفسرها وهلم جرا، والتفسير يكتب في جوف الحرف إذا كان نحو: «ص»، فلهذا يرى في اللوح المحفوظ عظيمًا نحوًا من مسيرة يوم أوأقل أوأكثر.

قال ﷺ: ولا يعلم ما في فواتح السور إلا أحد رجلين: رجل ينظر في اللوح المحفوظ، ورجل يخالط ديوان الأولياء أهل التصرف ﷺ وغير هذين الرجلين لا طمعية له في معرفة فواتح السور أبدًا[1].

ـ وسألته ﷺ عن ﴿الـم﴾ [البقرة:١] التي في أول البقرة، وعن ﴿الـم﴾ [آل عمران:١] التي في أول سورة آل عمران، هل أشير بهما إلى شيء واحد أو معناهما مختلف؟

فقال ﷺ: بل معناهما مختلف، وكل واحدة منهما قد شرحت بما في سورتها.

سمعت هذا الكلام منه في أول ما لقيته، فعلمت أنه ﷺ من أكابر الأولياء؛ لأني

---

(١) قال الشعراني، وقال: لا يعرف حقائق الحروف المقطوعة أوائل السور إلا أهل الكشف والوجود، فإنها صورة الملائكة وأسماؤهم، وقد اجتمعت بهم في واقعة وما منهم ملك إلا وأفادني علمًا لم يكن عندي، وهم من جملة أشياخي من الملائكة، فإذا نطق القارئ بهذه الحروف كان مثل ندائهم فيجيبوه، يقول القارئ: ﴿الٓمٓ﴾ فيقول هؤلاء الملائكة الثلاثة ما يقول، فيقول القارئ ما بعد هذه الحروف، فيقولون: صدقت إن كان خيرًا، ويقولون: هذا مؤمن حقًا نطق حقًا، وأخبر بحق، فيستغفرون له، وهكذا القول في ﴿الٓمٓصٓ﴾ وأخواتها وهم أربعة عشر ملكًا وآخرهم ﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ﴾ وقد ظهروا في منازل من القرآن على وجوه مختلفة، فمنازل ظهر فيها ملك واحد مثل ﴿ن﴾ و﴿ص﴾، ومنازل ظهر فيها اثنان مثل ﴿طسٓمٓ﴾ و﴿يسٓ﴾ و﴿حم﴾ وهكذا صورها مع التكرار تسعة وسبعون ملكًا بيد كل ملك شعبة من الإيمان، فإن الإيمان بضع وسبعون شعبة، والبضع من واحد إلى تسعة، فقد استوفى غاية البضع، فمن نظر في هذه الحروف بهذا الباب الذي فتح له يرى عجائب، وتكون هذه الأرواح الملكية التي هذه الحروف أجسامها تحت تسخيره، وبما بيدها من شعب الإيمان تمده وتحفظ عليه إيمانه، وأطال في ذلك بما لا يوجد في كتاب. [مختصر الفتوحات المكية] بتحقيقنا.

رأيت أكابر الصوفية ﷺ إذا تعرضوا لفواتح السور ورمزوا إلى شيء مما ذكره الشيخ ﷺ صرحوا بأنه لا يعرف معنى فواتح السور إلا الأولياء الذين هم أوتاد الأرض، فكانت هذه عندي شهادة عظيمة بولاية هذا السيد الجليل - رزقنا الله محبته - ووصلنا إلى العلوم التي تبدو لنا منه، ولم يتعاط شيئًا منها لا في كبره ولا في صغره، بل ولا قرأ القرآن ولا يحفظ منه إلا سورًا قليلة من حزب «سبح» وإذا سمعته يتكلم في تفسير آية سمعت العجب العجاب.

وهذه نصوص من أكابر الصوفية ﷺ الشاهدة بولايته وبجميع ما أشار إليه الشيخ

قال الترمذي الحكيم ﷺ في «نوادر الأصول»: إن فواتح السور فيها إشارة إلى حشو ما في السورة، ولا يعلم ذلك إلا حكماء الله في أرضه وأوتاد أرضه، وصلوا إليه به، نالوا هذه الحكمة وهم نجباء الحكماء، هم قوم وصلت قلوبهم إلى فردانيته، تناولوا هذا العلم من الفردية وهو علم حروف المعجم، وبهذه الحروف يعبر للعلوم كلها، وبالحروف ظهرت أسماؤه حتى عبروها بالألسنة. انتهى.

نقله الولي العارف بالله سيدي أبو زيد عبد الرحمن الفاسي ـ رحمه الله ـ في «حاشيته» على الحزب الكبير للولي القطب الكبير أبي الحسن الشاذلي، نفعنا الله به.

وقال في تلك «الحاشية» أيضًا: قال بعضهم: معرفة الحروف والأسماء من خصائص علوم الأنبياء من حيث كونهم أولياء، ولذا تقع المشاركة فيها بين الأولياء والأنبياء، وهي من علوم الكشف، فلا فائدة في التصرف فيها ببضاعة العقل، بل لا يعرفه من جهله ولا يجهله من عرفه، وكل على حسب ما فتح له، ولذلك يتفاوت فيها أهلها ويقع الاختلاف بينهم فيما يشيرون إليه فيها ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤].

وقال في «الحاشية» أيضًا: قال الورتجبي في «تفسيره»[1]: الحروف المقطعات رموز معاني سور القرآن، ولا يعرف معاني تلك الرموز إلا الربانيون. انتهى.

---

(١) انظر: «عرائس البيان في حقائق القرآن» لروزبهان البقلي الشيرازي الورتجبي المصري- طبع بدار الكتب العلمية- بتحقيقنا.

قال سيدي عبد الرحمن صاحب «الحاشية»: ويرد عليه أنه ورد رمز متحد في صور متعددة مختلفة المعاني، نحو: «ألـم»، «حم» ونحو ذلك، ويجاب بأن الرمز كالمشترك بين معان. انتهى.

* قلت: فانظر إلى هذه الشهادة العظيمة من هؤلاء الأكابر، وقد ذكر في تلك «الحاشية» نقولاً أخر عن سيدي عبد النور، وسيدي محمد بن سلطان، وسيدي داود الباخلي في شرح الحزب المعروف بحزب البحر لسيدي الشيخ أبي الحسن الشاذلي، لتعلم مكانة هذا الإمام الكبير، حققنا الله بمحبته.

فبقيت على ما سمعت منه في أوائل السور من غير استفادة لخصوص معانيها إلى أن كان يوم التروية سنة ١١٢٩ هـ تسع وعشرين، فسمعت منه ما سبق، وهو أن بعض القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ بالسريانية، وأن ذلك البعض هو فواتح السور، فطلبت منه أن يجيبني إلى تفسير كل فاتحة على حدتها، ويذكر لي شرح تلك الرموز بأسرها، فأجابني ـ ولله الحمد ـ على ذلك، فلنشر إلى بعضه، فإن جميعه لا يسعه إلا تأليف مستقل فنقول:

ـ أمّا «ص»:

فقال ﷺ في تفسيره: إن المراد به في هذه السورة الفراغ الذي يجتمع فيه الناس وجميع الخلائق في يوم المحشر، وذكره في الآية على سبيل الوعد والوعيد، فكأنه يقول: هو «ص» أي: الذي أخوفكم وأبشركم به هو «ص» وذلك أن ذلك الفراغ يتلون على ما تقتضيه أفعال كل ذات من الذوات، فتراه على كافر عذابًا من العذاب، وعلى المؤمن إلى جنبه رحمة من الرحمات، وعلى كافر آخر واقف إلى جنب هذا المؤمن عذابًا ولكن لا من جنس العذاب الذي للكافر الأول، بل من جنس آخر، وعلى مؤمن آخر واقف إلى جنب هذا المؤمن رحمة ولكن لا من جنس الرحمة التي للمؤمن الأول، بل من جنس آخر اقتضته أفعاله، وهكذا حتى يأتي على جميع من في المحشر، ولا تجد فيه حيزًا يشبه حيزًا أبدًا مع أنه فراغ واحد في رأي العين وعلى ما تقتضيه طبيعة الدنيا.

والمفتوح عليه يرى هذا عيانًا، فيرى زيدًا في فراغه على ما كتب له، ويرى عمرًا في فراغه على ما كتب له، وكأنهم الآن واقفون فيه بين يدي الله ﷻ فلهذا قلنا: لو علم الناس ما أريد بـ«ص» وما أشير إليه به ما اجترأ واحد على مخالفة أمر الله ﷻ فإنه لو فتح للناس

على مكانتهم في ذلك الفراغ لاغتبط المطيع ولمات المخالف أسفًا، ولا يخفى أنه يكون في ذلك الفراغ الكفار والمؤمنون، والأنبياء والملائكة، والجن والشياطين، وقد أشار إلى الكفار في صدر السورة بذكر طوائف منهم، وإلى الأنبياء بذكر طوائف منهم، وإلى المؤمنين بذكرهم خلال ذكر الأنبياء، وإلى الملائكة بذكر الملأ الأعلى آخر السورة، وإلى الجن والشياطين بالإشارة إليهم في آخر السورة، وذكر أحوالهم في الدنيا، وإن لم تكن لهم في المحشر؛ لأنها هي السبب في اختلاف أحوالهم في ذلك الفراغ الذي يحشرون فيه.

وبقيت أسرار أخر تتعلق بها في السورة لا يحل إفشاؤها، والله تعالى أعلم.

ـ وأمّا «كهيعص»:

فلا يفهم المراد منها إلا بعد تفسير كل حرف على حدته، فالكاف المفتوحة وضعت للعبد، والفاء الساكنة تحقيق لمعنى الفاء المفتوحة، ففيها ما في المفتوحة وزيادة التحقيق والتقرير، ومعنى المفتوحة الشيء الذي لا يطاق، فكأن الساكنة تقول: وكونه لا يطاق حق لا شك فيه، والهاء المفتوحة وضعت لتدل على الرحمة الطاهرة الصافية التي لا يخالطها كدر ولا غير، و«يا» للنداء، والعين المفتوحة وضعت لتدل على الرحيل والانتقال من حال إلى حال، والياء المسكنة هنا تدل على الاشتباك والاختلاط، والنون المسكنة تحقيق لمعنى المفتوحة، ومعنى المفتوحة الخير الساكن في الذات الشامل فيها، والصاد المفتوحة وضعت لتدل على الفراغ، والدال المسكنة تحقيق لمعنى الصاد؛ لأنها من حروف الإشارة، وحروف الإشارة تحقيق للمعاني التي قبلها، بخلاف حروف غير الإشارة فإنها إذا سكنت حققت معاني مفتوحاتها. هذا تفسير الحروف على ما اقتضاه وضعها.

وأمّا المعنى المراد منها هنا: فهو إعلام من الله تعالى لجميع المخلوقات بمكانة النبي ﷺ وعظيم منزلته عند الله تعالى، وأنه تعالى منّ على كافة المخلوقات بأن جعل استمداد أنوارها من هذا النبي الكريم ﷺ.

وبيان ذلك من التفسير السابق: إن الكاف دلت على أنه ﷺ عبد، والفاء الساكنة دلت على أنه لا يطاق، وأن كونه لا يطاق حق لا شك فيه، ومعنى كونه لا يطاق أنه أعجز الخلائق فلم يدركه سابق ولا لاحق، فكان بذلك سيد الوجود ﷺ والهاء المفتوحة دلت على أنه رحمة طاهرة صافية، مطهرة لغيرها كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾

[الأنبياء:]، وقال ﷺ: «إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ لِلْخَلْقِ»(١).

و«يا» نداء للعبد السابق والمنادى لأجله هو ما دلّت عليه العين من الرحلة المؤكدة بمعنى الياء الساكنة؛ لأنها من حروف الإشارة، وحروف الإشارة للتأكيد كما سبق، وتفيد مع ذلك لزوم الرحلة واشتباكها، و[الموصول](٢) به هو معنى النون الساكنة وهو نور الوجود الذي تقوم به الموجودات، والمرحول إليه هو المعنى الذي أشير إليه بالصاد.

فمعنى الكلام حينئذ: يا هذا العبد العزيز علي اذهب ذهابًا حتمًا لازمًا إلى جميع من هو في حيز وفراغ بالأنوار التي تقوم بها وجوداتهم ليستمدوا منك، فإن مادة الجميع إنما هي منك.

فقد ترتبت معاني الحروف ترتيبًا حسنًا، واتسق نظم الكلام أي اتساق؛ وذلك لأن معاني الحروف في السريانية كمعاني الكلمات في غيرها، فكما أن الكلام إذا تركب من الكلمات في لغة من اللغات لا يستقيم إلا إذا ترتبت معاني [كلماته](٣)، كذلك الكلام في السريانية إذا تركب من الحروف فإنه لا يستقيم إلا إذا ترتبت معاني حروفه، وكان بعضها آخذ بحجزة بعض، وكما أن الكلام إذا تركب من الكلمات في غير السريانية قد يحتاج من ترتيب معاني كلماته إلى تقديم وتأخير، وفصل بين معنيين متلاصقين بما هو أجنبي منهما، وإضمار شيء يتوقف عليه تصحيح المعنى، كذلك الكلام في السريانية إذا تركب من الحروف فقد يحتاج في ترتيب معاني الحروف إلى تقديم وتأخير، وحذف وإضمار إلى غير ذلك.

قال ﷺ: وهذا الذي فسرنا به معاني هذه الرموز معلوم عند أربابه بالكشف والعيان، فإنهم يشاهدون سيد الوجود ﷺ ويشاهدون ما أعطاه الله ﷻ وما أكرمه به ربه بما لا يطيقه غيره، ويشاهدون غيره من المخلوقات الأنبياء والملائكة وغيرهم، ويشاهدون ما أعطاهم الله من الكرامات، ويشاهدون المادة سارية من سيد الوجود ﷺ إلى كل مخلوق

---

(١) أخرجه الرامهرمزى (١/ ٣٤)، والحاكم (١/ ٩١، رقم ١٠٠) وقال: صحيح على شرطهما. والبيهقى في شعب الإيمان (٢/ ١٤٤، رقم ١٤٠٤)، وابن عساكر (٥/ ٤٠١)، والقضاعى (٢/ ١٩٠، رقم ١١٦١).

(٢) في (أ): المرحول. والصواب المثبت.

(٣) في (ب): حروفه.

في خيوط من نور قابضة في نوره ﷺ ممتدة إلى ذوات الأنبياء والملائكة ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وذوات غيرهم من المخلوقات، فيشاهدون عجائب ذلك الاستمداد وغرائبه.

قال ﷺ: ولقد أخذ بعض الصالحين طرف خبزة ليأكله، فنظر فيه وفي النعمة التي رزقها بنو آدم.

قال: فرأى في ذلك الخبز خيطًا من نور، فتبعه بنظره فرآه متصلاً بخيط نوره الذي اتصل بنوره ﷺ فرأى الخيط المتصل بالنور الكريم واحدًا، ثم بعد أن امتد قليلاً جعل يتفرع إلى خيوط كل خيط متصل بنعمة من نعم تلك الذوات.

* **قلت**: وهو صاحب الحكاية ﷺ وجعلنا من حزبه ومن شيعته ولا قطع بيننا وبينه.

قال ﷺ: ولقد وقع لبعض أهل الخذلان ـ نسأل الله السلامة ـ أنه قال: ليس لي من سيدنا محمد ﷺ إلا الهداية إلى الإيمان، وأمّا نور إيماني فهو من الله ﷻ لا من النبي ﷺ فقال له الصالحون: أرأيت إن قطعنا ما بين نور إيمانك وبين نوره ﷺ وأبقينا لك الهداية التي ذكرت، أترضى بذلك؟ قال: نعم رضيت.

قال ﷺ: فما تم كلامه حتى سجد للصليب، وكفر بالله وبرسوله ﷺ ومات على كفره، نسأل الله السلامة بمنه وفضله.

وبالجملة: فأولياء الله تعالى العارفون به ﷻ وبقدر رسول الله ﷺ يشاهدون جميع ما سبق عيانًا كما يشاهدون جميع المحسوسات، بل أقوى؛ لأن نظر البصيرة أقوى من نظر البصر كما سيأتي، وحينئذ فيشاهدون سيدنا زكريا عليه السلام وأحواله ومقاماته من الله ﷻ ممتدة من سيد الوجود ﷺ إلى سيدنا زكريا ﷺ وكذلك كل ما ذكر في السورة من سيدنا يحيى عليه السلام وأحواله ومقاماته، ومريم وأحوالها ومقاماتها، وعيسى وأحواله ومقاماته، وإبراهيم، وإسماعيل، وموسى، وهارون، وإدريس، وآدم، ونوح، وكل نبي أنعم الله عليه.

وهذا بعض ما دخل تحت تلك الرموز، وبقي مما دخل فيها عدد لا يحصى، فلهذا قلنا: إن ما في السورة بعض البعض مما في الرموز، فإن جميع الموجودات الناطقة والصامتة، العاقلة وغير العاقلة، وما فيه روح وما لا روح فيه كلها داخلة في تلك الرموز.

ولما سمعت منه ﷺ هذا التفسير الحسن سألته ﷺ عما نقله أبو زيد في «الحاشية» السابقة عن سيدي محمد بن سلطان، ونصه: ونقل سيدي عبد النور عن سيدي أبي عبد الله بن سلطان، وكان من أصحاب الشاذلي ﷺ أنه قال: رأيت في النوم كأني اختلفت مع بعض الفقهاء في تفسير قوله تعالى: ﴿كهيعص﴾ [مريم:١] و﴿حم * عسق﴾ [الشورى:١-٢] فأجرى الله تعالى على لساني أو قال: فقلت: هي أسرار بين الله تعالى وبين رسوله ﷺ فكأنه قال: «كاف» أنت كهف الوجود الذي يأوي إليه كل موجود، أنت كل الوجود.

«ها»: هبنا لك الملك وهيأنا لك الملكوت.

«يا عين»: يا عين العيون.

«صاد»: صفاتي أنت ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾ [النساء:٨٠].

«حا»: [حميناك][1].

«ميم»: ملكناك.

«عين»: علمناك.

«سين»: سررناك.

«قاف»: قربناك.

قال: فنازعوني في ذلك ولم يقبلوه مني.

فقلت: نسير إلى رسول الله ﷺ ليفصل بيننا، فسرنا فلقينا رسول الله ﷺ فقال لنا: الذي قال محمد بن سلطان هو الحق. انتهى.

فقال ﷺ: هذا المعنى الذي قاله سيدي محمد بن سلطان صحيح بالنسبة إلى مقامه ﷺ وتفسير هذه الحروف على حسب وضعها وما اقتضاه أصلها هو ما قلناه.

* قلت: ولا يخفى عليك [علو][2] تفسير الشيخ ﷺ فإن هبة الملك وتهيئة الملكوت كل منهما يقتضي المباينة له ﷺ وعدم التفرع عنه، وأين هذا من إدراج الملك والملكوت

(١) في (ب): حبيناك.
(٢) في (ب): شفوف.

وجميع المخلوقات تحت الصاد؟ ثم الحكم على الجميع بأن مادته من سيد الوجود ﷺ على ما اقتضاه حرف النون والعين، وهذا معنى كونه كهف الوجود الذي يأوي إليه كل موجود، فكل ما أشار إليه سيدي محمد بن سلطان ﷺ يندرج تحت النون والعين والصاد.

ثم سمعت منه ﷺ تفسير الفواتح كلها فاتحة فاتحة، ورمزًا رمزًا، ولا سبيل إلى كتب جميع ذلك لطوله، إلا أني أذكر ها هنا جوابين للشيخ ﷺ:

أحدهما: عن سؤال وجهه إليه بعض الفقهاء ممن ينتسب إلى محبة الفقراء مع عدة أسئلة.

ونص السؤال [الأول]: ومنها سيدي ـ أي: من الأسئلة ـ ما السر الإلهي المودع في حرف مقطع وهو «ق» حتى قال فيه بعض العارفين: فيه اجتمع سر دائرة الحضرة القديمة والحضرة الحادثة، بيّن لنا سيدي ذلك؟

وكان قصده بهذه الأسئلة اختبار الشيخ ﷺ وهل ما ينسب إليه من العلوم الوهبية صحيح أم لا؟ فنظر هذا الفقيه في كتب الحاتمي وغيره، وجمع من الأسئلة ما لا يحسب أنه لا يجيب عنه أحد فوجهه للشيخ ﷺ فأجاب ﷺ عنها كلها مع كونه أميًّا عاميًّا.

وأجاب ﷺ عن هذا السؤال: بأن الحضرة القديمة هي حضرة الأنوار الحادثة التي كانت مخلوقة قبل خلق الأرواح والأشباح، وقبل خلق السماوات والأرضين، وليس المراد بالقدم القدم على حقيقته الذي هو حيث كان الله ولا شيء معه، والمراد بالحضرة الحادثة هي ما بعد ذلك من الأرواح والأشباح، ولا شك أن حضرة الأرواح مع الأشباح منها ما وعده الله بالجنة، ومنها ما وعده الله بالنار، ثم ما وعده الله بالجنة فرع عن بعض أنوار حضرة الأنوار، كما أن ما وعده الله بالنار فرع عن بعضها، فصارت الحضرة الثانية فرعًا عن الحضرة الأولى، وانقسم الأمر فيهما إلى مرضي عنه وغير مرضي عنه، فإذا فهمت هذا فهذا الحرف المقطع فيه من حيث التلفظ ثلاثة حروف: مسمى قاف، ومسمى ألف، ومسمى فاء.

فمسمى قاف مضمومًا إلى مسمى ألف موضوع في السريانية لتصرف الله تعالى في الحضرتين بالخير وبالشر، وبالفضل والعدل.

ومسمى فاء إذا كان مسكنًا موضوع في السريانية؛ لإزالة القبيح مما قبله، والقبيح منهما هو الموعود بالشر، وإذا زال منهما الموعود بالشر بقي الموعود بالخير فيهما، وهم خاصته تبارك وتعالى، فهذا الحرف المقطع إشارة إلى خاصته تعالى في الحضرتين، وإلى الخيرات التي تفضل جل وعلا عليهم بها، وهذا هو سر الحضرتين، فهو اسم من أسمائه تعالى أضيف إلى أعز المخلوقات عليه ـ تبارك وتعالى ـ فهو بمنزلة قولنا في العربية: «سلطان» فهذا اللفظ يشير إلى الملك ورعيته سواء كانت الرعية أهل سعادة كالمسلمين، أو أهل شقاوة كالذميين.

فإذا أريد مدح ملك قيل فيه: «سلطان الإسلام» فالإسلام أخرج أهل الذمة من حيث الأدب والتعظيم والوقار لا أنهم خارجون حقيقة، فهو بمنزلة من يقول: يا رب محمد والأنبياء والملائكة وأهل السعادة، وهكذا حتى تأتي على جميع عددهم وعدد مقاماتهم وأحوالهم مع الله تعالى، وحتى تأتي على أهل الجنة وجميع منازلهم ودرجاتهم فيها، فإذا أتيت عليه ولم تذر منه شعرة واحدة فهو معنى «ق».

ففيه حينئذ أسرار الرسالة، وأسرار النبوة، وأسرار الملائكة، وأسرار الولاية، وأسرار السعادة، وأسرار الجنة، وأسرار جميع الأنوار وسائر الخيرات التي في سائر المخلوقات ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١] وعادتهم في السريانية ألّا يكتب في الخط الفاء التي للإزالة ليتشاكل الخط مع المعنى، فلهذا لم تكتب في الخط في «ق»، والله أعلم.

فقال ﷺ: وإن شئت أن تجعل الحضرة القديمة هو ما سبق في العلم الأزلي وتكون الحضرة القديمة على [بابها] وحقيقتها، وتجعل الحضرة الحادثة هي المعلومات التي أوجدها ﷻ وأبرزها في هذا العالم فلك ذلك، وبقي المعنى على حالته، والله تعالى أعلم.

* **قلت**: فانظر ـ وفقك الله ـ ما أحسن هذا الجواب، قد اجتمعت مع السائل فقلت له: ما عندكم في جواب الشيخ ﷺ؟

فقال: الذي ذكره الشيخ زرّوق أن الحضرة القديمة هي دائرة القاف، والحادثة هي التعريقة التي تحت الدائرة، والسر الذي فيها هو الإشارة إلى استمداد الحادثة من القديمة من حيث إن التعريقة متصلة بالحلقة التي سميناها دائرة، فاتصالها أشير به إلى استمداد

الحادثة من القديمة، فقد أشير بسورة «ق» إلى الحضرتين بحلقته إلى القديمة وتعريقته إلى الحادثة، وباتصال التعريقة بالحلقة إلى استمداد الحادثة [من] القديمة.

فقلت: وأين هذا مما ذكره الشيخ ﷺ؟ فإن السؤال وقع عن معنى قاف الذي هو لفظ من الألفاظ، وهذا الذي ذكرتموه إنما يتعلق بالخط لا باللفظ، فإن لفظ «قاف» ليس فيه حلقة ولا تعريقة، ثم إن ما ذكرتموه ليس فيه تعرض لمعنى الحضرة القديمة والحضرة الحادثة، ثم أيّ مناسبة بين الحلقة والحضرة القديمة؟ وأيّ مناسبة بين التعريقة والحضرة الحادثة؟ فإن كان ذلك لمجرد الاتصال فهو موجود في حلقة الميم وتعريقتها، وفي الصاد والضاد والعين والغين وغير ذلك من الحروف التي فيها حلقة وتعريقة، فانقطع السائل ولم يدر ما يقول.

وليس هذا مني اعتراض على الشيخ زروق ﷺ فإني أعوذ بالله من الاعتراض عليه وعلى غيره من الأولياء ـ نفعنا الله بعلومهم ـ وإنما باحثت السائل وجاريته في الكلام على أني لم أقف على كلام الشيخ زروق ﷺ ولا علمت كيف هو، ولعل السائل نقله لي بالمعنى ولم يتحققه، فلذلك وقع عليه الاعتراض، والله تعالى أعلم.

وأمّا الجواب الثاني: فهو عن الإشكال الذي أشار إليه سيدي عبد الرحمن الفاسي ـ نفعنا الله به ـ صاحب «الحاشية» السابقة.

وحاصله: ما وجه اتحاد الرمز وتعدد السور إذا كانت الفواتح رموزًا إلى جشو ما في سورها، فإن هذا يقتضي تباين الرموز كما تباينت السور؟

فأجاب ﷺ بأن سبب اختلاف السور واتحاد الرموز هو أن أنوار الآيات القرآنية ثلاثة أقسام:

أبيض: وهو الذي يقوله العباد ويسألونه من ربهم ﷻ.

وأخضر: وهو ما يقوله الحق ﷻ.

وأصفر: وهو ما يتعلق بأحوال المغضوب عليهم.

ففي الفاتحة الأخضر وهو: ﴿الْحَمْدُ لله﴾ [فقط] لأنه من قول الحق ﷻ وفيها الأبيض وهو من: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢] إلى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ﴾ وفيها الأصفر وهو من: ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:٧] إلى آخرها.

وهذه الأنوار الثلاثة في كل سورة إلا أن بعضها قد يقل وبعضها قد يكثر كما ترى في الفاتحة، وسبب اختلاف هذه الأنوار الثلاثة اختلاف الأوجه الثلاثة التي للوح المحفوظ، فإن له وجهًا إلى الدنيا ـ أي: متعلقًا بالدنيا وأحوال أهلها ـ وقد كتب فيه كل ما يتعلق بها وبأهلها، وله وجه آخر إلى الجنة وقد كتب فيه أحوالها وأحوال أهلها وصفاتهم، وله وجه آخر إلى جهنم وقد كتب فيه أحوالها وأحوال أهلها وصفاتهم، أعاذنا الله من جهنم وعذابها.

فالوجه الذي إلى الدنيا نوره أبيض، والذي إلى الجنة نوره أخضر، والذي إلى جهنم نوره أصفر، وهو أسود في الحقيقة، وإنما صار أصفر في نظر المؤمن؛ لأن نور بصيرته إذا وقع على شيء أسود صيره أصفر في نظره، حتى إن المؤمن إذا كان في المحشر وكان له من النور الخارق ما كتب له، وكان على البعد منه كافر أحاط به سواد عظيم وظلام كثير، فإنه ـ أي: المؤمن ـ يراه أصفر، فيعلم أن ذلك الشبح المرئي شبح كافر.

قال ﷺ: وأمّا الكافر فإنه لا يرى شيئًا ويحجبه الظلام الذي غشيه من كل جهة، فهو لا يرى إلا سوادًا على سواد.

فقلت: فإذًا لا يقع في قلبه إلا من كان في المحشر يماثله، فلا يرى للمؤمن عليه مزية، فلا يتمنى أن لو كان في الدنيا مسلمًا.

فقال ﷺ: يخلق الله تعالى له العلم الضروري بالجنة وأحوال أهلها، إذا فهمت هذا، فالآية إن أخذت من الوجه الذي يلي الجنة كان نورها أخضر، وإن أخذت من الوجه الذي إلى النار كان نورها أصفر، وإن أخذت من الوجه الذي إلى الدنيا كان نورها أبيض.

ثم في كل وجه من هذه الأوجه تفاصيل وتقاسيم لا يحيط بها إلا الله تعالى، وهذه الفواتح التي في أول السور مكتوبة في اللوح المحفوظ كما هي مكتوبة في المصحف، ولكن كتب مع كل حرف منها شرحه بالسريانية، فإذا رأيت ما كتب في شرح كل فاتحة علمت تباينها.

وبيان ذلك: إنْ «**ألـم**» رموز أشير بها إلى نور [سيدنا محمد] وسيد الوجود ﷺ الذي استمد منه جميع المخلوقات.

فإن نظر إلى هذا النور المشار إليه بهذا الرمز من حيث إن من المخلوقات منهم من آمن به ومنهم من كفر به، وما هي أحوال من آمن به وما هي أحوال من كفر به، وما يتعلق بذلك وينساق إليه الكلام فهو الذي ذكره في سورة «البقرة» وبهذا المعنى نزلت.

وإن نظر إليه باعتبار الخيرات الحاصلة للناس منه وكيفية حصولها، وذكر بعض من حصلت له فهو الذي ذكر في سورة «آل عمران» وبهذا المعنى نزلت.

وإن نظر فيه باعتبار ما نزل من النقم على غير أهله وما أصيبوا به في هذه الدار ونحو ذلك فهو الذي ذكر في سورة «العنكبوت» وكذا يقال في كل سورة ترجمت بهذا الرمز، يعلم هذا الذي قلناه من عاينه في اللوح المحفوظ.

ثم أوردت سؤالاً يتعلق بالمقام فأجابني عنه بما لا تطيقه العقول، فلذا لم نكتبه، والله تعالى أعلم.

* قلت: وهذه إشارة من فوق فوق إلى ما ذكره الشيخ ﷺ وأمّا تحقيق المعنى الذي أشار إليه والبلوغ إلى تمامه فإنه لا يدرك إلا بالفتح أو بمشافهة الشيخ ﷺ فعند أخذه ﷺ في تبيين المعاني وسؤال السائل له عن كل ما يعرض له في خاطره يصل الشخص إلى المعنى بتمامه وإن لم يكن من أهل الفتح، والله تعالى أعلم.

وقد ظهر لي أن أكتب هنا أصل وضع الحروف في اللغة السريانية؛ لأنه يحتاج إليه، وقد سبقت منا الحوالة عليه كثيرًا، فلنذكره تتميمًا للفائدة، فنقول:

أمّا الهمزة: فإن كانت مفتوحة فهي إشارة إلى جميع الأشياء قلت أو كثرت، وتكون الإشارة في بعض الأحيان من المتكلم إلى ذاته ونفسه، وهذه الإشارة سالمة من القبض، فإن كانت مضمومة فهي إشارة إلى الشيء القريب القليل، وإن كانت مكسورة فهي إشارة إلى الشيء القريب المناسب.

وأمّا الباء: فإن كانت مفتوحة فهي إشارة إلى الشيء الذي هو في غاية العز أو في غاية الذل، وإن كانت مكسورة فهي إشارة إلى ما دخل أو هو داخل على الذات، وإن كانت مضمومة فهي إشارة معها قبض.

وأمّا التاء المثناة من فوق: فإن كانت مفتوحة فهي اسم للخير الكثير العظيم، وإن

كانت مكسورة فهي اسم لما صنع وأبرز، وإن كانت مضمومة فهي اسم للقليل البارز، وقد يؤتى بها لجمع الضدين.

وأمّا الثاء المثلثة: فإن كانت مفتوحة فهي إشارة إلى النور أو الظلام، وإن كانت مضمومة فهي إشارة إلى زوال الشيء من الشيء، وإن كانت مكسورة فهي إشارة إلى جعل الشيء على الشيء.

وأمّا الجيم: فإن كانت مفتوحة فهي نبوة أو ولاية إذا كان قبلها أو بعدها ما يدل على ذلك، وإلا فهي للخير الذي لا يزول أبدًا، وإن كانت مضمومة فهي الخير الذي يؤكل أو ينتفع الناس منه، وإن كانت مكسورة فهي الخير القليل الذي في الذات من نور الإيمان.

وقال لي ﷺ مرة أخرى: وإن كانت مكسورة فهي الخير القليل الضعيف أو النور.

وأمّا الحاء: فإن كانت مفتوحة فهي تدل على الإحاطة والشمول كـ«جميع»، وإن كانت مضمومة فهي العدد الكثير الخارج عن بني آدم كالنجوم، وإن كانت مكسورة فهي العدد الداخل في الذات أو للذات عليه ولاية كملكية العبيد والدنانير والدراهم وغير ذلك.

وأمّا الخاء: فإن كانت مفتوحة فهي طول إلى النهاية مع رقة، وإن كانت مضمومة فهي اسم لكمال في الحيوانات، وإن كانت مكسورة فهي اسم لكمال في الجمادات.

وأمّا الدال: فإن كانت مفتوحة فهي إشارة إلى خارج عن الذات، وإن كانت مكسورة فهي إشارة إلى ما في الذات أو إلى ما هو داخل عليها أو إلى ما هو قريب منها، وإن كانت مضمومة فهي إشارة إلى ما هو قليل أو قبيح ومعه غضب فيهما.

وأمّا الذال: فإن كانت مفتوحة فهي إشارة إلى ما في تعظيم ذلك الشيء الذي ملكته الذات، وإن كانت مضمومة فهي اسم للشيء الخشن في ذاته أو العظيم أو القبيح، وإن كانت مكسورة فهي اسم للشيء القبيح الذي لا يعقبه في نفسه غضب.

وأمّا الراء: فإن كانت مفتوحة فهي إشارة إلى جميع الخيرات الظاهرة والباطنة، وإن كانت مضمومة فهي إشارة إلى الواحد في نفسه وهو ظاهر، وإن كانت مكسورة فهي إشارة إلى الشيء الذي فيه الروح وليس من بني آدم، أو إشارة إلى الروح نفسها.

وأمّا الزاي: فإن كانت مفتوحة فهي اسم للشيء الذي إذا دخل على الشيء ضره.

وقال مرة: اسم للشيء وما يتحرز منه، وإن كانت مضمومة فهي إشارة إلى القبيح الذي فيه ضرر كالكبائر، وإن كانت مكسورة فهي إشارة إلى القبيح الذي لا ضرر فيه كالصغائر والشبهات والنجاسة.

وأمّا الطاء: فإن كانت مفتوحة فهي إشارة إلى الشيء الذي جنسه طاهر وصاف إلى النهاية، وهو في ذاته أيضًا طاهر صاف إلى النهاية، وإن كانت مضمومة فهي إشارة إلى الخبيث إلى النهاية عكس الأول، وإن كانت مكسورة فهي إشارة إلى الشيء الذي من طبعه السكون أو أمر بالسكون.

وأمّا الظاء: فإن كانت مفتوحة فهي إشارة إلى الشيء الذي هو عظيم في نفسه ولا يكون معه ضده كالجود في الشرفاء والغش في اليهود، وإن كانت مضمومة فهي إشارة إلى الشيء الذي يتبع تحرك نفسه وهي تسعى في هلاكه، وإن كانت مكسورة فهي إشارة إلى الشيء الذي يتضرر منه العبد ومن طبعه أنه يضر.

وأمّا الكاف: فإن كانت مفتوحة فهي إشارة إلى حقيقة العبودية الكاملة، وإن كانت مضمومة فهي العبد الأسود أو القبيح، وإن كانت مكسورة فهي إشارة إلى إضافة العبودية إليك.

وقال مرة أخرى: فهي إشارة منك إليك بالعبودية.

وأمّا اللام: فإن كانت مفتوحة فهي حصول المتكلم على شيء عظيم، وتكون إشارة إلى شيء عظيم، وإن كانت مضمومة فهي إشارة إلى الشيء الذي لا نهاية له، وإن كانت مكسورة فهي إشارة من المتكلم إلى وجود ذاته أو إلى ذاته، هذا إذا كانت مرققة، فإن كانت مفخمة فهي إشارة مع قلق.

وقال مرة: مع قبح.

وأمّا الميم: فإن كانت مفتوحة فهي جميع المكونات، وإن كانت مكسورة فهي نور الذات ظاهرًا كما في العين وباطنًا كما في القلب، وإن كانت مضمومة فهي العزيز القليل كماء العين، ومنه قيل: مومو.

وأمّا النون: فإن كانت مفتوحة فهي الخير الساكن في الذات الشاعل فيها، وإن كانت مضمومة فهي إشارة إلى الخير الكامل أو النور الساطع، وإن كانت مكسورة فهي إشارة إلى شيء يدركه المتكلم أو هو له.

وأمّا الصاد: فإن كانت مفتوحة فهي جميع غبار الأرض في الموقف بين يدي الله ﷻ وإن كانت مكسورة فهي الأرضون السبع، وإن كانت مضمومة فهي جميع نباتها.

هذا إذا كانت الصاد مرققة، فإن كانت مفخمة فالمفتوحة هي الأرض التي غضب الله عليها أو التي لا نبات فيها، والمكسورة الذات التي لا نبات فيها أو الذات لا خير فيها، والمضمومة ما يلحقنا منه ضرر من المعنيين السابقين.

وقال مرة أخرى: الصاد بالفتح إشارة إلى الأرض كلها وما عليها مقدار فرسخ، وبالضم جميع الأرضين وما هو تراب، وبالكسر النبات الذي على وجه الأرض، وإذا كانت مفخمة تكون الإشارة إلى ما على هؤلاء بغضب من الله ﷻ. انتهى.

وهذا الثاني كتبته من خطه ﷺ بعد وفاته، والأول سمعته منه مشافهة، والعبارة في الثاني له ﷺ.

وأمّا الضاد المعجمة: فهي إذا كانت مفتوحة عبارة عن الصحة وعدم البلاء، وإن كانت مضمومة فهي إشارة إلى الشيء الذي لا نور فيه أو لا ظلام فيه، وإن كانت مكسورة فهي عبارة عن الخضوع.

وأمّا العين المهملة: فإذا كانت مفتوحة فهي اسم لقدوم أو رحيل، وإذا كانت مضمومة فهي اسم للساكن في الذات الذي تقوم به، وإن كانت مكسورة فهي اسم لخبث الذات.

هذا هو الذي سمعته منه ﷺ والذي في خطه ﷺ: العين بالفتح إشارة إلى ما هو قابل، وبالضم إشارة إلى الشيء الذي ينفع ويضر على حسب الإرادة، وبالكسر خبث العبودية. انتهى.

وهو قريب من الأول؛ لأن الذي هو قابل فيه قدوم، والساكن في الذات الذي تقوم به مثل الروح والحفظة ينفع ويضر بإذن الله تعالى، وخبث العبودية هو خبث الذات

وظلامها.

وأمّا الغين المعجمة: فإن كانت مفتوحة فهي اسم للنظر الذي يبلغ به حقيقة الشيء، وإن كانت مضمومة فهي اسم من أسمائه تعالى ويدل على الحنانة فيه، وإن كانت مكسورة فهي سؤال عما يجهله ليجيبه بما يعلمه.

هذا ما سمعته منه ﷺ وفي خطه ﷺ: الغين بالفتح إشارة إلى الشيء الذي من طبعه يدفع كل من قاربه، وبالضم إشارة إلى الحنانة والتعظيم وكمال العز، وبالكسر إشارة إلى الشيء الذي تكلم بكلمة ولا يعرفها وهو إشارة إلى ما هو مجهول. انتهى وهما متقاربان.

وأمّا الفاء: فإن كانت مفتوحة فهي لنفي الخبث بعدما كان جنسه معلومًا بالخبث، فهي إشارة إلى أنه طاهر وجنسه خبيث، والخبث مثل المعاصي وما أشبهها، وإن كانت مكسورة فهي إشارة إلى الذات وما احتوت عليه، وفي بعض الأحيان قد يكون معها التقليل، وإن كانت مضمومة فهي لتزويل الخبث.

وأمّا القاف: فإن كانت مفتوحة فهي إشارة إلى حيازة [جميع] الخيرات أو إلى جميع الأنوار، وإن كانت مضمومة فهي إشارة إلى النشأة الأصلية أو العلم القديم وما أشبه ذلك، وإن كانت مكسورة فهي إشارة إلى الذل.

وأمّا السين: فإن كانت مفتوحة فهي إشارة إلى الشيء المليح الذي من طبعه الرقة، وإن كانت مضمومة فهي إشارة إلى الشيء القبيح الخشن، أو إشارة إلى سواد حسًا ومعنى، وبالكسر إشارة إلى الشيء الطابع وتكون الإشارة منه.

وهذا ما في خطه ﷺ والذي سمعته منه ﷺ: السين المرققة بالفتح اسم لمحاسن الأشياء، وبالضم اسم للسواد حسًا ومعنى، وبالكسر لباب الذات وسرها من عقل كامل، وعفو وحلم، وهما متقاربان.

وأمّا الشين: فإن كانت مفتوحة فهي إشارة إلى الرحمة التي لا يعقبها عذاب، وتكون إشارة إلى من خرجت منه النقمة ودخلت عليه الرحمة وتطهر، وإن كانت مضمومة فهي إشارة إلى عال في نفسه مع التعظيم، وإن كانت مكسورة فهي إشارة إلى الشيء الذي من طبعه الستر، وقد تكون الإشارة إلى ما هو مستور في القلب وما أشبه ذلك.

هذا ما في خطه ﷺ والذي سمعته منه، رحمه الله تعالى ونفعنا به: الشين بالفتح رحمة لا يعقبها عذاب، وبالضم ما تحير فيه الأذهان أو يضر بالأجفان كالقذى ونحوه، وبالكسر ما وطئ عليه بعضو أو رجل ولم يظهر أو ما بطن في القلب ولم يظهر.

وأمّا الهاء: فإن كانت مفتوحة فهي الرحمة الطاهرة التي لا نهاية لها، وإن كانت مضمومة فهي اسم من أسمائه تعالى، وإن كانت مكسورة فهي إشارة إلى الخير الذي يخرج من ذوات المخلوقات.

هذا ما في خطه ﷺ والذي سمعته منه ﷺ: الهاء بالفتح [إشارة إلي] الرحمة المطهرة التي لا نهاية لها، وبالضم من أسمائه تعالى وفيه مشاهدة جميع المكونات، بخلاف النون المضمومة فهي بمنزلة من يقول: ربي، والهاء المضمومة بمنزلة من يقول: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢] وبالكسر جميع النور الخارج من ذوات المؤمنين.

وأمّا الواو: فإن كانت مفتوحة فهي الأشياء المشتبكة في الإنسان مثل العروق والأصابع وما أشبه ذلك، وإن كانت مضمومة فهي الأشياء [المشتبكة] المباينة لبني آدم، مثل: الأفلاك والجبال وما أشبه ذلك، وإن كانت مكسورة فهي الأشياء المشتبكة المستقذرة أو المبغوضة كالأمعاء ونحوها.

وأمّا الياء: فإن كانت مفتوحة فهي للنداء، وقد يؤكد بها.

هذا ما سمعته منه ﷺ والذي في خطه ﷺ: الياء بالفتح للنداء وتكون في بعض الأحيان للخبر الذي فيه نداء، نحو: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ [الإخلاص:٣] فإنه خبر وفيه نداء، وإن كانت مضمومة فهي إشارة إلى الشيء الذي لا يثبت كالبرق ونحوه، وإن كانت مكسورة فهي إشارة إلى الشيء الذي يستحيى به أو يستحيى منه كالعورة.

قال ﷺ: هذه أسرار الحروف، ولكل حرف منها سبعة أسرار تنشأ من مناسبة المعاني السابقة، وله سبعة أسرار أخر يناسب بها الكلام العربي، وإذا سمعنا الكلام عجميًا ناسبه بأسرار أخر، والله يوفقنا ويعلمنا بجاه سيدنا محمد ﷺ.

وكتبه عبد العزيز بن مسعود الشريف الشهير بالدباغ. انتهى من خطّه ﷺ.

فانظر ـ رحمك الله ـ هل سمعت مثل هذا أو رأيته مسطورًا في ديوان؟ والله تعالى أعلم.

وفي الشهر الذي لقيته ﷺ واجتمعت به أو بعده بقليل، كلمني بثلاث كلمات من السريانية، وقال لي: اعقل عليها وإياك أن تنساها، وهي: «سِنَزْ سِذْعُ مَازَرْ» بكسر السين وفتح النون بعدها راء مسكنة، ثم سين مكسورة بعدها ذال معجمة مسكنة، ثم عين مضمومة، ثم ميم مفتوحة، بعدها ألف، بعده زاي مفتوحة، ثم راء مسكنة.

فقلت له ﷺ: ما هذه اللغة؟

فقال: سريانية، لا يعرف أحد يتكلم بها على وجه الأرض؛ يعني: إلا القليل.

فقلت: وما معنى هذه الكلمات؟ فلم يفسر لي معانيها، وحيث علمت أصل وضع الحروف في السريانية تبين لك أنه يقول لي: انظر إلى هذا النور الساكن في ذات الشاعل فيها الذي هو في ظاهري وفي باطني، انظر إلى هذا الخير العظيم الذي ملكته ذاتي وبه قوامها فإن به طهارة جميع الأكوان من الشرور، وكل ما في السماوات والأرض وسائر العوالم من الخيرات الظاهرة والباطنة فهي مستمدة من هذا النور الذي هو في ذاتي، فهو ﷺ يخاطبني بأنه هو المتصرف في العوالم كلها، والله تعالى أعلم.

ـ وسألته ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ [آل عمران:١٤٠] وقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ [محمد:٣١] ونحو ذلك مما يدل على تجدد علمه تعالى، مع أن علمه تعالى قديم والقديم لا يتجدد.

فقال ﷺ: إن القرآن ينزل على عادة الناس في كلامهم، ولو كان لملك من الملوك قريب ليس فوقه قريب، وفوض إليه ذلك الملك أمر الرعية، وغاب الملك عن أعين الناس، وشرط على الرعية طاعة ذلك القريب، وخصه بالدخول عليه بحيث لا يدخل عليه من الرعية غير ذلك القريب، فهذا يخرج من عنده بما يلزم الرعية في طاعة الملك وخدمته، فإذا جعل ينفذ أوامر الملك يقول لهم: يأمركم الملك بكذا، ويطلب منكم كذا، ويريد منكم أن تفعلوا كذا وكذا، حتى تصير هذه عادة ذلك القريب في خطاباته كلها حتى في الأمور التي تخصه، ولا تكون من الملك، فيقول لهم: اخرجوا مع الملك إلى كذا، وباشروا معه الأمر الفلاني، وإنما يعني نفسه؛ وذلك للاتحاد الذي حصل بينه وبين الملك، وهذا معروف في عادة الناس لا ينكر، فكذلك ها هنا العلم الذي نسب إلى الله ﷻ ليس متجددًا إنما المقصود به نسبته إلى الرسول ﷺ.

ثم ذكر ﷺ كلامًا عاليًا يشير به إلى معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح:١٠].

* **قلت**: وهذا الجواب غير الجواب الذي يذكره المفسرون في الآية، وأنها على حذف مضاف؛ أي: وليعلم رسول الله، والله تعالى أعلم.

ـ **وسألته** ﷺ عن مسألة الغرانيق، وقلت له: هل الصواب مع عياض ومن تبعه في نفيها، أو مع الحافظ ابن حجر فإنه أثبتها؟

ونص كلام الحافظ: وأخرج ابن أبي حاتم والطبري وابن المنذر من طرق عن شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير قال: «قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَكَّةَ: ﴿وَالنَّجْمِ﴾ فَلَمَّا بَلَغَ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾ [النجم:١٩-٢٠] فَأَلْقَى الشَّيْطَانُ عَلَى لِسَانِهِ: تِلْكَ الْغَرَانِيقُ الْعُلَى وَإِنَّ شَفَاعَتَهَا لَتُرْتَجَى، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: مَا ذَكَرَ آلِهَتَنَا بِخَيْرٍ قَبْلَ الْيَوْمِ، فَسَجَدَ وَسَجَدُوا»[1].

ثم ذكر تخريج البزار للقصة وكلامه عليها وما يتبع ذلك إلى أن قال:

وتجرأ أبو بكر بن العربي على عادته فقال: ذكر الطبري في ذلك روايات كثيرة لا أصل لها، وهو إطلاق مردود عليه، وكذا قول عياض: هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه ثقة بسند سالم متصل مع ضعف نقلته، واضطراب رواياته، وانقطاع إسناده.

وكذا قوله: ومن حملت عنه هذه القصة من التابعين والمفسرين لم يسندها أحد منهم ولا رفعها إلى صحابي، وأكثر الطرق في ذلك عنهم ضعيفة.

قال: وقد بين البزار أنه لا يعرف من طريق يجوز رفعه إلا طريق أبي بشر عن سعيد بن جبير مع الشك في وصله، وأمّا الكلبي فلا تجوز الرواية عنه لقوة ضعفه، ثم رده من طريق النظر فقال: لو وقع ذلك لارتد كثير ممن أسلم ولم ينقل ذلك. انتهى.

قال ابن حجر: وجميع ذلك لا يتمشى على القواعد، فإن الطرق إذا كثرت وتباينت مخارجها دل ذلك على أن للقصة أصلاً، وقد ذكرنا أن ثلاثة أسانيد منها على شرط

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٤٠٥).

الصحيح، وهي مراسيل يحتج بمثلها من يحتج بالمرسل، وكذا من لا يحتج به لاعتضاد بعضها ببعض، وإذا تقرر ذلك تعين تأويل ما وقع فيها مما يستنكر، فذكر في ذلك ست تأويلات فانظرها فيه.

ولما ثبتت هذه القصة فُسر بها قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ [الحج:٥٢].

فنقل عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه يفسر «تمنى» بقرأ، و«أمنيته» بقراءته.

قال: يشير إلى مسألة الغرانيق التي سبق ذكرها.

ونقل عن النحاس أن هذا أحسن تأويل قيل في الآية وأجله وأعلاه.

فقلت للشيخ ﷺ: فما هو الصحيح عندكم في هذا أو ما الذي نأخذه عنكم في هذا الموضع الضيق؟

فقال ﷺ: الصواب في القصة مع ابن العربي وعياض ومن وافقهما لا مع ابن حجر وقط ما وقع للنبي ﷺ شيء من مسألة الغرانيق، وإني لأعجب أحيانًا من كلام بعض العلماء كهذا الكلام الصادر من ابن حجر ومن وافقه، فإنه لو وقع شيء من ذلك للنبي ﷺ لارتفعت الثقة بالشريعة، وبطل حكم العصمة، وصار الرسول كغيره من آحاد الناس حيث كان للشيطان سلاطة عليه وعلى كلامه، حتى يزيد فيه ما لا يريده الرسول ﷺ ولا يحبه ولا يرضاه، فأيّ ثقة تبقى في الرسالة مع هذا الأمر العظيم؟!.

ولا يغني في الجواب أن الله ينسخ ما يلقي الشيطان ويحكم آياته؛ لاحتمال أن يكون هذا الكلام من الشيطان أيضًا؛ لأنه كما جاز أن يتسلط على الوحي في مسألة الغرانيق بالزيادة، كذلك يجوز أن يتسلط على الوحي بزيادة هذه الآية برمتها فيه، وحينئذ فيتطرق الشك إلى جميع آيات القرآن، والواجب على المؤمن الإعراض عن مثل هذه الأحاديث الموجبة لمثل هذا الريب في الدين، وأن يضربوا بوجهها عرض الحائط، وأن يعتقدوا في الرسول ﷺ ما يجب له من كمال العصمة وارتفاع درجته ﷺ إلى غاية ليس فوقها غاية.

ثم على ما ذكروه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ يقتضي أن يكون للشيطان تسلط على وحي كل رسول رسول، وكل نبي نبي، زيادة على

تسليطه على القرآن العزيز لقوله تعالى: ﴿مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ [الحج:٥٢]، فاقتضت الآية على تفسيرهم أن هذه عادة الشيطان مع أنبياء الله وصفوته من خلقه ولا ريب في بطلان ذلك.

* **قلت**: ورضي الله عن الشيخ ما أدق نظره مع كونه أميا، وقد قال ناصر الدين البيضاوي رحمه الله تعالى: قيل: «تمنى» قرأ، و«أمنيته» قراءته، و«ألقى الشيطان فيها» أي: تكلم بالغرانيق رافعًا صوته بحيث ظن السامعون أنه من قراءة النبي ﷺ وقد رُدّ بأنه يخل بالوثوق ولا يندفع بقوله: ﴿فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ﴾ [الحج:٥٢] لأنها أيضًا تحتمله انتهى الغرض منه، وقد بسطه الشيخ ﷺ في جوابه.

* **قلت**: وأيضًا فإن الضمير في «تمنى» يعود إلى ما قبله من الرسول العام والنبي، ولا يمكن أن يلقي الشيطان في أمنية كل منهم مسألة الغرانيق، وقد علمت ـ رحمك الله ـ أن العصمة من العقائد التي يطلب فيها اليقين، فالحديث الذي يفيد خرمها ونقضها لا يُقبل على أي وجه جاء، وقد عد الأصوليون الخبر الذي يكون على تلك الصفة من الخبر الذي يجب أن يُقطع بكذبه.

وأمّا قول الحافظ ابن حجر- رحمه الله: والحديث حجة عند من يحتج بالمرسل، وكذا عند من لا يحتج به لاعتضاده بوروده من ثلاث طرق صحاح، فجوابه: إن ذلك فيما يكفي فيه الظن من الأمور العملية الراجعة إلى الحلال والحرام، وأمّا الأمور العلمية والاعتقادية فلا يفيد خبر الواحد في ثبوتها، فكيف يفيد في نفيها وهدمها؟! فبان من هذا أن ما ذكره عياض غير مخالف للقواعد، بل ما ذكره الحافظ ـ رحمه الله ورضي عنه ـ هو المخالف لها؛ لأنه أراد أن يعمل بخبر الواحد في هدم العقائد، وذلك مخالف للقواعد.

وكذا قوله في تفسير «تمنى» بقرأ، و«أمنيته» بقراءته، وأنه مروي عن ابن عباس، وأن ذلك أحسن ما قيل في الآية وأجله وأعلاه.

وجوابه: إن الرواية في ذلك عن ابن عباس ثبتت في نسخة علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، ورواها علي بن أبي صالح كاتب الليث عن معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وقد علم ما للناس في ابن أبي صالح كاتب الليث، وأن المحققين على تضعيفه، والله تعالى أعلم.

ثم قلت للشيخ، رحمه الله ونفعنا به: ما الصحيح عندكم في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ [الحج:٥٢] وما هو نور الآية الذي تشير إليه؟

فقال ﷺ: نورها الذي تشير إليه هو أن الله تعالى ما أرسل من رسول ولا بعث نبيًّا من الأنبياء إلى أمة من الأمم إلا وذلك الرسول يتمنى الإيمان لأمته ويحبه لهم، ويرغب فيه، ويحرص عليه غاية الحرص، ويعالجهم عليه أشد المعالجة، ومن جملتهم في ذلك: نبينا ﷺ الذي قال له الرب ﷻ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف:٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣].

وقال تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٩٩] إلى غير ذلك من الآيات المتضمنة لهذا المعنى.

ثم الأمة تختلف كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾ [البقرة:٢٥٣] فأمّا من كفر فقد ألقى إليه الشيطان الوساوس القادحة له في الرسالة الموجبة لكفره، وكذا المؤمن أيضًا لا يخلو من وساوس؛ لأنها لازمة للإيمان بالغيب في الغالب، وإن كانت تختلف في الناس بالقلة والكثرة، وبحسب المتعلقات.

إذا تقرر هذا فمعنى ﴿تَمَنَّى﴾ [الحج:٥٢] أنه يتمنى الإيمان لأمته، ويحب لهم الخير والرشد والصلاح والنجاح، فهذه أمنية كل رسول ونبي، وإلقاء الشيطان فيها يكون بما يلقيه في قلوب أمة الدعوى من الوساوس الموجبة لكفر بعضهم، ويرحم الله المؤمنين فينسخ ذلك من قلوبهم ويحكم فيها الآيات الدالة على الوحدانية والرسالة، ويبقي ذلك ﷻ في قلوب المنافقين والكافرين ليفتتنوا به، فخرج من هذا أن الوساوس تُلقى أولاً في قلوب الفريقين معًا، غير أنها لا تدوم على المؤمنين وتدوم على الكافرين.

* **قلت**: وهذا التفسير عندي من أبدع ما يسمع، وذلك لا يتبين إلا بجلب بعض التفاسير التي قيلت في الآية، ثم يُنظر فيما بينها وبين تفسير الشيخ ﷺ.

فالتفسير الأول: ما سبق في رواية ابن أبي صالح كاتب الليث بن سعد، وقد سبق ما

فيه من مخالفة العقيدة، ومن مخالفته للعموم الذي في صدر الآية، فإنه فسرها بخصوص مسألة الغرانيق واللفظ عام في كل رسول ونبي.

التفسير الثاني: قال أبو محمد مكي: قال الطبري: ﴿تَمَنَّى﴾ أي: حدَّث نفسه فألقى الشيطان في حديثه على جهة الحيلة، فيقول: لو سألت الله أن يغنمك كذا ليتسع المسلمون والله يعلم الصلاح في غير ذلك، فيبطل الله ما يلقي الشيطان، وقد نقل الفراء والكسائي «تمنى» بمعنى حدث نفسه، انتهى.

* **قلت**: ولا يخفى ما فيه، وكيف يصح أن يتحيل الشيطان على النبي ﷺ وهو صاحب البصيرة الصافية التي يستنير منها الكون كله! ثم ما ذكره لا يناسب العموم الذي في أول الآية، ولا التعليل الذي في آخرها كما لا يخفى، والله تعالى أعلم.

التفسير الثالث: قال البيضاوي ﴿إِلَّا إِذَا تَمَنَّى﴾ إذا زور في نفسه ما يهواه، ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ [الحج:٥٢] في تشهيه ما يوجب اشتغاله بالدنيا كما قال ﷺ: «وَإِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي فَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً»[1] إلى آخر ما ذكره مما لا يناسب سياق الآية ولا تنزيه مقام الرسالة.

وبالجملة: فالتفسير الصحيح للآية هو الذي يوفي بثلاثة أمور: العموم الذي في أولها، والتعليل الذي في آخرها، ويعطي للرسالة حقها، وليس ذلك بحسب ما وقفت عليه إلا في تفسير الشيخ ﷺ والله تعالى أعلم.

ـ وسألته ﷺ أيضًا عن اختلاف عياض وابن حجر ـ رحمهما الله ـ في قصة هاروت وماروت:

فإن الأول: نفى الأحاديث الواردة في ذلك وأبطلها.

والثاني: أثبت القصة وقال: إنها وردت من طرق شتى يكاد يجزم الواقف عليها بصحة القصة ويقطع بوقوعها، واتبعه الحافظ السيوطي فإنه أكثر من طرقها في كتابه

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢١١، رقم ١٧٨٨١)، وعبد بن حميد (ص ١٤٢، رقم ٣٦٤)، ومسلم (٤/ ٢٠٧٥، رقم ٢٧٠٢)، وأبو داود (٢/ ٨٤، رقم ١٥١٥)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (ص ١٤٤، رقم ٤٤٦)، وابن حبان (٣/ ٢١١، رقم ٩٣١)، والبغوي (١/ ١٢٤، رقم ٨٩)، والطبراني (١/ ٣٠٢، رقم ٨٨٧).

«الحبائك في أخبار الملائك» وقال فيه: إنه استوفى طرقها في «تفسيره الكبير».

فقال ﷺ **ونفعنا به**: الحق في ذلك مع عياض ـ رحمه الله ـ وذكر أسرارًا لا تكتب ولا تفشى، والسلام.

ـ **وسألته** ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ [النور: ٤٣] هل في السماء جبال من برد كما قاله بعض المفسرين؟

فقال ﷺ: ليس فيها ذلك، والمراد بالسماء في الآية: ما علاك، فكأنه يقول [في الآية]: وينزل من جهة العلو، وجبال البرد تكون في جهة العلو بحمل الرياح لها من الأرض إلى الجهة المذكورة.

وسبب سؤالي له ﷺ عن هذه الآية: إنه ورد علي سؤال عن أصل الثلج مم يكون؟ وتضمن السؤال فصولاً كثيرة لم أدر ما أقول فيها، فعرضته على الشيخ ﷺ فأجابني عن فصوله، فكتبتها في جوابي، ولنذكر السؤال والجواب لتكمل الفائدة بذلك.

ونص السؤال: الحمد لله، سادتنا الأعلام أدام الله بكم النفع للأنام، جوابكم في الثلج ما أصله؟ وهل ينزل كذلك من محله منعقدا أم هو ماء عقدته الرياح؟ وما محله الذي ينزل منه، أمن السماء أم من المعصرات أم هو من بحر في السماء مكفوف كما قيل به في المطر أو غير ذلك؟ ولأي شيء خص بالبلاد الشديدة البرد دون غيرها؟ ولأي شيء خص بالجبال فقط دون سهل الأرض؟ وعلى أنه إن نزل في سهلها، فإنه لا يمكث إلا قليلاً بخلاف مكثه في الجبال.

ونراه في بعض الأحيان ينزل مجتمعًا مع المطر دفعة، وفي بعضها ينزل وحده وهو الأغلب، وأيضًا فإنه قد لا يكون الحاجز بين الحارة والبازدة إلا اليسير مثل الستة عشر ميلاً فأقل فتختص كل واحدة منهما بما اختصت به، هل ذلك معلل أم لا؟ ولأي شيء خصت الجبال وعلو الأرض بالبرودة دون السهل منها؟ وأيضًا الصاعقة لا تنزل إلا في البلاد الباردة والجبال ومواضع الشجر بخلاف الأرض السهلة المستوية الحارة مثل الصحراء، فقد ذكر أهلها أنهم لا يعرفونها ولا تنزل عندهم، فلأي شيء خصت بناحية دون أخرى؟ وما السر في ذلك؟ جوابًا شافيًا.

ونص الجواب: الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، **الجواب** والله الموفق للصواب بمنه: إن الثلج ماء عقدته الرياح، وأصله غالبًا من ماء البحر المحيط، وماء البحر المحيط مخصوص بثلاث خصال لا توجد في غيره:

ـ **البرودة إلى النهاية:** لمجاورته للرياح ولبعده من حر الشمس، ولذلك ينعقد بأدنى سبب.

ـ **والصفاء إلى النهاية:** لأنه ماء باق على أصل خلقته لم يمتزج بشيء من جواهر الأرض، فإنه بحر محمول على القدرة الأزلية، وليس هو على الأرض ولا على شيء.

ـ **والبعد إلى النهاية:** فإن المسافة التي بيننا وبينه في غاية البعد.

إذا فهمت فاعلم أنه تبارك وتعالى إذا أمر الرياح بحمل شيء من هذا الماء فإنه ينعقد بعد حمله لأجل البرودة التي فيه، ولا تزال الرياح تحمله شيئًا فشيئًا وتسحقه قليلاً قليلاً، فإذا طالت المسافة التي بيننا وبينه حصل له انحلال إلى النهاية حتى يصير مثل الهباء، وتجتمع أجزاؤه لأجل النداوة التي فيه، ولذا ينزل على هيئة لطيف الصوف أحيانًا، وعلى هيئة أخرى أدق منها أحيانًا، فهذا أصل الثلج.

وذلك بخلاف البرد، فإن المسافة التي بين انعقاده ونزوله غير طويلة؛ لأنه من مياه البحور التي في وسط الأرض، ومن الغدران التي تجتمع في الأرض عند نزول الأمطار غالبًا، ولذلك قد يوجد أحيانًا في وسط الحبة شيء من البرد من أجزاء الأرض مثل الكريس ونحوه، وقد شاهد الثقات ذلك، وإنما ما كان مستديرًا على هيئة الطعام المفتول الغليظ وأغلظ لأجل مصاككة الريح له، فراجت أجزاؤه في الهواء تحت أيدي الرياح مثل: روجان أجزاء الطعام تحت أيدي المرأة في الصحفة، فحصل فيه فتل مثلما يحصل في الطعام، ولما نزل في الحين شاهدنا ذلك فيه ولو أنه تأخر نزوله ودامت المصاككة والروجان لاندهقت أجزاؤه وصار ثلجًا، فهذا بيان أصل الثلج، وبيان الموضع الذي ينزل منه.

وأمّا قولكم: لأيّ شيء خص بالبلاد الشديدة البرد إلى قولكم بخلاف مكثه في الجبال.

فجوابه: إن العلة في ذلك هي أن الثلج لا يزال على انعقاده حتى يطرأ عليه مانع،

فإذا طرأ المانع رجع مطرًا، وذلك المانع هو الأجزاء البخارية الصاعدة من الأرض وفيها نوع حرارة، فإذا لقيت الثلج كسرت من برودته فزال انعقاده، ولا يخفى أن هذه الأجزاء البخارية تكثر جدًّا في البلاد الحارة والسهول، ولذا لا يرى فيها ثلج، وعلى تقدير إن رؤي فإنه لا يطول مكثه، بخلاف البلاد الباردة والجبال المرتفعة فإنه لا مانع فيها من بقاء الثلج على انعقاده.

وقولكم: ونراه أحيانًا ينزل مع المطر وأحيانًا وحده.

فاعلم أن سبب نزوله مع المطر أحد أمرين:

إمّا: ذوبان بعض أجزائه بالأجزاء البخارية السابقة فينزل الذي لم يذب ثلجًا والذي ذاب مطرًا، ولذلك يكون المطر النازل معه في الغالب ضعيفًا رقيقًا مسحوقًا مثل الثلج.

وإمّا: إنه نزل قبل تمام انعقاده، فإن الرياح تحمل ماء فينعقد وتطحنه، ثم تحمل ماء آخر، فإذا أمرهما الله بالنزول نزل الأول ثلجًا والثاني مطرًا.

وقولكم: وأيضًا فإنه قد لا يكون الحاجز إلى قولكم هل ذلك معلل أم لا؟

فجوابه: إن مدار الفرق على وجود المانع من الانعقاد وعدمه، وقد فقد المانع في البلاد الباردة ووجد في الحارة، فلذلك اختصت كل واحدة بما اختصت به.

وقولكم: لأي شيء خصت الجبال وعلو الأرض بالبرودة دون السهل منها؟

فجوابه: إنه إنما اختصت بذلك لقربها من الجو الذي هو في غاية البرودة، وأمّا السهول فإنها بعيدة منه وبهذا حصل الفرق.

وقولكم: وأيضًا الصاعقة فإنها لا تنزل إلى قولكم وما السر في ذلك؟

فجوابه: إن القول بأن الصاعقة لا تنزل في الأرض السهلة المستوية الحارة غير صحيح، فإنا شاهدناها تنزل في بلادنا «سجلماسة» وهي أرض سهلة مستوية حارة صحراء، ولا أحصي كم [مرة] شاهدناها تنزل فيها.

وقد ذكر السيد في «شرح المواقف» أن صبيًا كان في صحراء فأصاب رجليه صاعقة،

فسقط ساقاه ولم يخرج منه دم، وقد ذكر المفسرون نزولها في الصحراء عند قوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ [الرعد:١٣].

واعلم أن هذا الذي ذكرناه في الجواب أخبر به من عاين الأمر على ما هو عليه من أرباب البصيرة ـ نفعنا الله بهم ـ نعني: الشيخ ﷺ فينبغي أن ينسب هذا الجواب لساداتنا الصوفية ﷺ.

وأمّا كلام أهل السنة والجماعة فقد عدمناه في هذا الباب، فإني راجعت مظان المسألة في كتب التفسير والحديث والكلام، فما عثرت على شيء فيها، وهذا الحافظ جلال الدين السيوطي- رحمه الله - مع جلالة قدره وعلو درجته في الحديث والآثار لم يتعرض لذلك لا في الكتاب الذي سماه بـ«الهبة السنية في الهيئة السنية» وقد وضعه في علم الهيئة لأمثال هذه المسألة، ولا في «حاشيته» على البيضاوي وعادته فيها أن يرد كلام الحكماء الذي يتبعه البيضاوي بكلام السلف الصالح، ولا في «الدر المنثور في تفسير القرآن بالمأثور» ولا في غير ذلك من كتبه التي وقفنا عليها.

وقد أكثر في هذه الكتب الثلاثة من الكلام على الرعد والصواعق والمطر والسحاب والبرق، وكان من حقه أن يتكلم على الثلج والبرد وعلى سببهما؛ لأن البيضاوي نقل طريقة الحكماء في سببهما، وهي مبنية على نفي الفاعل بالاختيار كما أشار إلى ذلك صاحب «المواقف» وهذه طريقة الحكماء.

قال في «المواقف وشرحها»: اعلم أن حر الشمس وغيرها يصعد إلى الجو أجزاء، إمّا هوائية ومائية مختلطين وهو البخار وصعوده ثقيل، وإمّا نارية وأرضية وهي الدخان وصعوده خفيف، وليس ينحصر الدخان كما تعورف في الجسم الأسود الذي يرتفع مما يحترق بالنار، وقلما يصعد البخار والدخان ساذجين، بل يتصاعدان في الأغلب ممتزجين، ومنهما يتكون جميع الآثار العلوية.

أمّا البخار فإن قل واشتد الحر في الهواء حلل الأجزاء المائية، وقلبها إلى الأجزاء الهوائية، وهي الهواء الصرف وإلا ـ أي: وإن لم يكن الأمر كذلك ـ فإن كان البخار كثيرًا ولم يكن في الهواء من الحرارة ما يحلله، فإن وصل ذلك البخار بصعوده إلى الطبيعة الزمهريرية التي هي الهواء البارد كما عرفت عقده ببرده، فتكاثف وصار سحابًا وتقاطرت

الأجزاء المائية، إمّا بلا جمود وهو المطر إذا لم يكن البرد شديدًا، وإمّا مع جمود إذا كان البرد شديدًا، فإن كان الجمود قبل الاجتماع والتقاطر وصيرورته جثاثًا كبارًا فهو الثلج، وإن كان الجمود بعده فهو البرد، وإنما يستدير ويصير كالكرة بالحركة السريعة الخارقة للهواء بمصادفته، فتمتحى الزوايا عن جانب القطرات المنحدرة.

ثم تكلم على سبب الظل والصقيع والضباب، والرعد والبرق، والصاعقة والريح، وغيرها من الأمور العلوية، ثم قال بعد كلام طويل ملخص بعبارة جامعة وافية: ما ذكرناه في الفصل الثاني أو في المرصد الأول كله آراء الفلاسفة حيث نفوا القادر المختار، كما سبقت الإشارة إليه أثناء الكلام مرة بعد أخرى... إلى آخر كلامه. انتهى المراد منه.

وحينئذ فعلى ناصر الدين البيضاوي ـ رحمه الله ـ درك في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ [النور:٤٣] بطريقة الفلاسفة، والعجب من سكوت الحافظ السيوطي ـ رحمه الله ـ في «الحاشية» على ذلك، وكذا شيخ الإسلام زكريا الأنصاري ـ رحمه الله ـ في «حاشيته» عليه.

واعلم أن الجواب الأول الذي سمعناه من الشيخ ﷺ لو أردنا بسطه، وبيان أوجهه، وتفصيل ما ينجر إليه الكلام، ما وسعنا له كراس، وفي هذا القدر كفاية، والله تعالى أعلم.

قاله وكتبه عبيد ربه أحمد بن مبارك بن محمد بن علي بن مبارك السجلماسي اللمطي، لطف الله به آمين.

ـ وسألته ﷺ عن الزلزلة وسببها؛ وذلك أني كنت معه ﷺ بسوق الرصيف نتماشى، فحدثت زلزلة صغيرة شعر بها بعض الناس دون بعض، وكنت أنا ممن لم يشعر بها، فلما بلغنا المخفية لقينا ناس فسألونا: أشعرتم بالزلزلة؟ فقلت: إنا ما شعرنا بشيء وما كانت زلزلة.

فقال لي الشيخ ﷺ: قد كانت، وذلك حيث كنا بسوق الرصيف واقفين عند فلان في حانوته، ثم شاع أمرها في الناس.

ـ فسألته ﷺ عن سببها، وقد كنت عرفت ما قاله السلف الصالح فيها، وما قاله الفلاسفة أيضًا فيها، وأحببت أن أسمع جوابه ﷺ.

فقال لي ﷺ: سبب زلزلة الأرض تجلي الحق ﷻ لها، وشرح هذا الكلام سر، وقد سمعته من الشيخ ﷺ.

قال ﷺ: ثم هذا التجلي كان كثيرًا في أول خلق الأرض وقبل خلق الجبال فيها، فكانت تضطرب وتميل، ثم حجبها جل وعلا وخلق الجبال فيها فسكنت، وفي آخر الزمان يكثر هذا التجلي أيضًا، فلا تزال الأرض تكثر فيها الزلازل والرجفات حتى يبيد من عليها.

* **قلت**: وذكر الحافظ السيوطي - رحمه الله - في كتابه الذي سماه بـ«كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة» عن ابن عباس قريبًا من كلام الشيخ ﷺ ونصه: وقال الطبراني في كتابه «السنة»: باب ما جاء في تجلي الله للأرض عند الزلزلة، حدثنا حفص بن عمر الرقي، حدثنا عمرو بن عثمان الكلبي، حدثنا موسى بن أعين عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن عكرمة عن ابن عباس قال: «إِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يُخَوِّفَ عِبَادَهُ أَبْدَى عَنْ بَعْضِهِ لِلْأَرْضِ فَعِنْدَ ذَلِكَ تَزَلْزَلَتْ، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يُدَمْدِمَ عَلَى قَوْمٍ تَجَلَّى لَهَا».

وقال الديلمي في «مسند الفردوس»: أخبرنا عبدوس، أخبرنا ابن زنجويه، أخبرنا القطيعي، حدثنا محمد بن إسحاق البلخي القاضي، حدثنا أبو نعيم، حدثنا عبد الرحمن بن براء من أهل هراة، حدثنا أبو عبد الله الهروي، حدثنا محمد بن أزهر، حدثنا أيوب بن موسى عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «وَإِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يُخَوِّفَ خَلْقَهُ أَظْهَرَ لِلْأَرْضِ مِنْهُ شيئًا فَارْتَعَدَتْ، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يُهْلِكَ خَلْقَهُ تَبَدَّى لَـهَا»[1]، انتهى.

فرضي الله عن الشيخ ما أعرفه بالأمور.

ثم قال الحافظ السيوطي: وبهذه الآثار عرف فساد قول الحكماء: إن الزلازل إنما تكون عن كثرة الأبخرة الناشئة عن تأثير الشمس واجتماعها ـ يعني: الأبخرة تحت الأرض ـ بحيث لا تقمعها برودة حتى تصير ماء، ولا تتحلل بأدنى حرارة لكثرتها، ويكون وجه الأرض صلبًا بحيث لا تنفذ البخارات منها، فإذا صعدت ولم تجد منفذًا اهتزت الأرض

---

(١) أخرجه الديلمي (١/ ٢٤٨، رقم ٩٦١).

منها واضطربت كما يضطرب بدن المحموم لما يثور في بطنه من بخارات الحرارة، وربما انشق ظاهر الأرض فتخرج تلك المواد المحتبسة، ووجه فساده أنه قول لا دليل عليه، بل ورد الدليل بخلافه. انتهى كلام الحافظ، رحمه الله تعالى.

ـ **نعم سألت الشيخ** ﷺ عن سبب الخسف الذي يظهر في الأرض أحيانًا ويكثر في آخر الزمان.

فقال ﷺ: إن الأرض محمولة على الماء، والماء محمول على الريح، والريح تخرج من حيز عظيم بين السماء وطرف الماء - أعني: ماء البحر المحيط - وذلك أنا لو قدرنا رجلاً يمشي ولا ينقطع مشيه فإنه يبلغ لمنقطع الأرض، ثم يرى البحر المحيط، فإذا فرضناه يمشي عليه ولا ينقطع مشيه، فإنه لا يزال يمشي فوق الماء إلى أن ينقطع. وعند ذلك لا يبقى بينه وبين السماء إلا الجو الذي تخرج منه الريح، فيرى رياحًا لا تكيف ولا تطاق، وهي بإذن الله الحاملة للماء والأرض والماسكة للسماء، ثم هي خدامة دائمًا لا تسكن لحظة، ومرتفعة نحو السماء.

فإذا أراد الله تعالى أن ينزل المطر على قوم أمر شيئًا من تلك الرياح فانعكس إلى جهة الأرض وعبر على متن البحر المحيط أو غيره، فيحمل ما أراد الله تعالى من الماء إلى الموضع الذي يريده ﷻ وكم مرة أنظر إلى طرف الماء الموالي للجو الذي فيه الرياح فأرى فيه جبالاً من الثلج لا يعلم قدر عظمها إلا الله ﷻ فإذا رجعت من الغد وجدت تلك الجبال نقلت إلى طرف الماء الموالي لجبل قاف، وإذا الرياح المنعكسة هي التي حملتها، والله تعالى أعلم.

وإذا أراد الله أن يخسف بقوم دخلت الرياح في منافس وتقويرات في الأرض بينها وبين الماء، فإذا دخلت الريح فيها وقع في الأرض انحلال ينشأ عنه الخسف، وفي آخر الزمان تكثر المنافس في الأرض، ويكثر انعكاس الرياح إلى جهة الأرض فتكثر الخسوفات حتى يختل نظام الأرض، وكل ذلك بفعل الله تعالى وإرادته، والله تعالى أعلم.

ثم لا تزال الرياح [تعمد][1] نحو الأرض وتقصد خرابها حتى تصير الأرض في أيدي الرياح بمثابة الغربال في يدي الذي يصير بها زرعًا من تراب أو حجر، والمصير في الأرض هو عجب الذنب الذي تركب منه الذات، وهو لبني آدم بمثابة الزريعة، فيجمعه

---

(١) في (ب): تصمد.

الله من أعماق الأرض، وقعر البحار، ووسط الكهوف، وتحت الجبال وحيثما كان، وفي ذلك اليوم تسير الجبال ثم تنسف نسفًا من قوة الريح، ثم تنشق السماء وينزل الماء على عجب الذنب، فلا يزال ينمو شيئًا فشيئًا كنمو القلنيص[1] والبطيخ ونحوهما[2]، ويظهر على وجه الأرض.

قال ﷺ: وهنا يقول لنا سيدي [عبد الله][3] البرناوي- رحمه الله: اذكروا يوم تبيض الأرض فتسير إلى نمو عجب الذنب، فإذا تم نموه انفتح عن بني آدم كما تنفتح البيضة عن الطير.

قال: السرة يومئذ من جهة الظهر لا من جهة البطن، ثم يأمر الله تعالى الأرواح بالدخول في أشباحها، فإذا دخلت الأرواح فيها استقلت قائمة فانقطعت السرة، فإذا تم دخول الأرواح في الأشباح أمر الله تعالى النور الساري الذي كان يحجب جهنم عن الخروج إلى أهل الدنيا، وهو نور نبينا ومولانا محمد ﷺ أن يسير نحو الجنة، وعند ذلك تخرج جهنم إلى أهل الأرض وتأتيهم من كل جهة، ولا يعلم مقدار الخوف الذي يدخل العباد في ذلك اليوم إلا الله تبارك وتعالى.

قال ﷺ: وفي ذلك اليوم وقت دخول الأرواح في الأشباح يسمع للأرواح دوي وخفقان، وأصوات تملأ القلوب رعبًا، وتنقطع الأكباد منها دهشًا، ثم تكلم ﷺ على ما يقع في ذلك اليوم، وسيأتي بعضه إن شاء الله تعالى، والله تعالى أعلم.

ـ وسألته ﷺ عن قوله تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾ [الرحمن:٣٥] خطاب للإنس والجن، هل ذلك الإرسال في المحشر أو بعد استقرارهم في جهنم؟

فقال ﷺ: إنما يكون ذلك في المحشر، وهي النار التي تخرج على أهل المحشر وتحف بهم من كل ناحية، والله تعالى أعلم.

ـ وسألته ﷺ عن قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾

---

(١) هكذا في الأصول، ولم نقف لها على معنى؛ ولعلها (اليقطين).

(٢) مثل: الحنظل والقثاء والرمان والخيار والباذنجان، وكذا ما استدار من ثمار الأشجار.

(٣) في (أ): عبد الوهاب، ولعل الأصوب ما أثبتناه.

[الأنبياء:١٠٤] ما المراد بالسجل؟ فإن من المفسرين من فسره بالصحيفة؛ أي: كطي الصحيفة للكتاب؛ أي: لأجل الكتابة التي فيها؛ أي: طويت الصحيفة لأجل الكتابة التي فيها.

فقال ﷺ: المراد بالسجل الآلة التي يضع الناسخ عليها الكتاب الذي ينسخ منه التي تسمى عند العامة اليوم بحمار الكتب، وأظنه ﷺ قال: اللفظة سريانية، والمعنى: يوم نطوي السماء كطي الآلة المذكورة، فإن صاحبها إذا فرغ من النسخ عليها يطويها، وقوله تعالى: «للكتب» في موضع الحال من السجل؛ أي: حال كون السجل للكتاب احترازًا من السجل الذي لغير الكتاب.

وفاتني أن أسأله ﷺ **عن وجه الشبه وكيفية طي السماء، ولم شبه طيها بطي الآلة المخصوصة؟ وهل بينهما مناسبة خاصة لا توجد في غيرهما؟ وهل هناك سجل آخر لغير الكتاب حتى يحترز عنه؟ وما هو؟ ولو سألته** ﷺ **ورحمه عن هذه الأسئلة لخرجت في أجوبتها علوم غيبية، فإنه** ﷺ لا يجيبنا إلا عن عيان، وحيث عدمت كلامه ﷺ في تتميم المسألة فنكملها بكلام العلماء ﷺ.

قال الإمام أبو عبد الله البخاري في «صحيحه»: السجل الصحيفة.

قال الحافظ في «الفتح»: وصله الفريابي من طريقه ـ يعني: من طريق مجاهد ـ وجزم به الفراء، وروى الطبري معناه من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿**كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ**﴾ [الأنبياء:١٠٤] يقول: كطي الصحيفة على الكتاب.

قال الطبري: ومعناه كطي السجل على ما فيه من الكتابة، وقيل: «على» بمعنى من؛ أي: من أجل الكتاب؛ لأن الصحيفة تطوى لما فيها من الكتابة.

وجاء عن ابن عباس أن السجل اسم كاتب كان للنبي ﷺ أخرجه أبو داود والنسائي والطبري من طريق عمرو بن مالك عن أبي الجوزاء عن ابن عباس بهذا، وله شاهد من حديث ابن عمر عند ابن مردويه، وفي حديث ابن عباس عند ابن مردويه: «السجل: الرجل بلسان الحبشة».

وعند ابن المنذر من طريق [مسلم][1] قال: السجل الملك.

وعند الطبري من وجه آخر عن ابن عباس مثله.

وعند عبد بن حميد من طريق عطية مثله، وبإسناد ضعيف عن علي مثله.

وذكر السهيلي عن النقاش أنه ملك في السماء الثانية ترفع إليه الحفظة الأعمال كل خميس وإثنين.

وعند الطبري من حديث ابن عمر بعض معناه.

وقد أنكر الثعالبي والسهيلي أن السجل اسم للكاتب؛ لأنه لا يعرف في كتاب النبي ﷺ ولا في أصحابه من اسمه السجل.

قال السهيلي: ولا وجد إلا في هذا الخبر، وهو حصر مردود، فقد ذكره في الصحابة ابن منده وأبو نعيم، وأورده من طريق ابن نمير عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر قال: كان للنبي ﷺ كاتب يقال له: السجل، وأخرجه ابن مردويه من هذا الوجه. انتهى كلام الحافظ ـ رحمه الله تعالى ـ والله تعالى أعلم.

ـ وسألته ﷺ عن قوله تعالى: ﴿**قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي**﴾ [الأعراف:١٤٣].

فقلت: موسى عليه السلام من أكبر العارفين بالله تعالى، ولا يكون العارف عارفًا حتى يخوض بحار المشاهدة، فكيف سأل الرؤية وهو من أهل المشاهدة الدائمة، وهل تزيد الرؤية على المشاهدة؟

فقال ﷺ **ونفعنا بذاته الكريمة**: مشاهدة الذات العلية لا تخلص لأهلها من مشاهدة أفعالها، ولا تصفو منها إلا لو كانت أفعال الذات العلية تنقطع، ولو انقطعت طرفة عين لانهدم الوجود واختل نظام العالم، فما من موجود إلا وفيه فعل الله تعالى، وهو مادته والسبب في بقائه، وهو الحجاب بينه وبين الذات العلية، ولولا أنه تعالى حجب [ذاته في][2] أفعاله تعالى فيها لاحترقت الذوات وذاب كل حادث في العالم، فلما لم تصف المشاهدة

---

(١) في (ب): السدي.

(٢) سقطت من (أ).

لأهلها وصارت الأفعال المتقدمة بمنزلة القذى في البصر، سأل موسى عليه السلام ربه ﷻ أن يقطع عنه الفعل؛ حتى لا يحجبه عن مشاهدة الذات العلية على الصفاء، فقال له ربه ﷻ: إذا قطعت الفعل عن الحادث اختلت ذاته، وهذا الجبل أقوى منك ذاتًا وأصلب منك جرمًا، فانظر إليه ﴿فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ﴾ بعد قطع فعلي عنه ﴿فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ [الأعراف:١٤٣] وقطع عنه الفعل الحاجب له عن سطوة الذات العلية تدكدك الجبل وتطايرت أجزاؤه حتى صعق موسى عليه السلام.

ثم ذكر رضي الله عنه أسرارًا إلهية لا أحرمنا الله منها بمنه وكرمه، والله تعالى أعلم.

ـ وسألته رضي الله عنه عن قوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد:٣٩] فإن علماء التفسير رضي الله عنهم اختلفوا في ذلك اختلافًا كثيرًا، وذكرت له بعض ما قالوه.

فقال رضي الله عنه: لا أفسر لكم الآية إلا بما سمعت من النبي ﷺ يذكره لنا في تفسيرها بالأمس.

فقال رضي الله عنه: إن ما يقع في خواطر العباد مما يتعلق بالأمور الكائنة على قسمين:

قسم: لا يقع، وإليه الإشارة بقوله: ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ﴾.

وقسم: يقع، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَيُثْبِتُ﴾ يعني: إن الخواطر المتعلقة بالأمور الاستقبالية كنزول مطر وقدوم قادم ووقوع حادث منها ما يخيب وهو الممحو، ومنها ما يجيب بالجيم وهو المثبت ﴿وَعِندَهُ﴾ تعالى ﴿أُمُّ الكِتَابِ﴾ [الرعد:٣٩] وهو العلم القديم الذي لا يخيب أصلاً. هكذا فسره النبي ﷺ فاعتمده واطرح ما سمعت من غيره، وذلك أني كنت سمعت منه في الآية تفسيرًا آخر طالما أفصح فيه عن حقائق عرفانية، والله تعالى أعلم.

ـ **وسألته** رضي الله عنه عن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ المَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ العَالَمِينَ * يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران:٤٢-٤٣] هل تدل الآية على نبوة السيدة مريم؟ وهل ما قيل من نبوة غيرها من النساء كأم موسى، وآسية امرأة فرعون، وسارة، وهاجر، وحواء، صحيح أم لا؟

فإن من العلماء من ذهب إلى الأول، ومنهم من ذهب إلى الثاني، وحكى بعضهم

الإجماع عليه في السيدة مريم، فيكون غيرها [أَوْلى] وأحرى، ومنهم من توقف كالشيخ الأشعري رئيس أهل السنة والجماعة.

واستدل الأولون بأن الملك لا ينزل إلا على النبي ﷺ وقد صرحت الآية بنزوله على مريم، وجعلوا هذا فارقًا بين النبي والولي، فقالوا: النبي ينزل عليه الملك، والولي يلهم ولا ينزل عليه الملك.

فقال ﷺ: الصواب مع أرباب القول الثاني، وهو نفي النبوة عن نوع النساء، ولم تكن لله نبوة في ذلك النوع أبدًا، وإنما كانت مريم صديقة، والنبوة والولاية وإن اشتركتا في أن كلاً منهما نور وسر من أسرار الله ﷻ فنور النبوة مباين لنور الولاية، وما به المباينة لا يدرك على الحقيقة إلا بالكشف، غير أن نور النبوة أصلي ذاتي، حقيقي مخلوق مع الذات في أصل نشأتها، ولذا كان النبي معصومًا في كل أحواله.

ونور الولاية بخلاف ذلك، فإن المفتوح عليه إذا نظر إلى ذات من سيصير وليًّا يرى ذاتًا كسائر الذوات، وإذا نظر إلى ذات من سيصير نبيًّا رأى نور النبوة في ذاته سابقًا، ورأى تلك الذوات مطبوعة على أجزاء النبوة السابقة التي سبقت في حديث: «**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ**»[1] فيكون صاحبها مطبوعًا على قول الحق ولو كان مرًا، وعلى الصبر الذي لا يحس معه بألم ولا تكون معه كلفة، وعلى الرحمة الكاملة، وعلى معرفة الله ﷻ على الوجه الذي ينبغي أن تكون المعرفة عليه، وعلى الخوف التام منه ﷻ خوفًا يمتزج فيه الخوف الباطني بالخوف الظاهري حتى يدوم له الخوف في سائر أحواله، وعلى بغض الباطل بغضًا دائمًا، وعلى العفو الكامل حتى يصل من قطعه وينفع من ضره، فهذه هي خصال النبوة وأجزاؤها السبعة التي تطبع عليها ذات النبي قبل الفتح وبعده.

وأمّا ذات الولي فإنها قبل الفتح من جملة الذوات ليس فيها شيء زائد، فإذا فتح عليها جاءتها الأنوار فأنوارها عارضة، ولذا كان الولي غير معصوم قبل الفتح وبعده.

وأمّا ما ذكروه في الفرق بين النبي والولي من نزول الملك وعدمه فليس بصحيح؛ لأن المفتوح عليه سواء كان وليًّا أو نبيًّا لابد أن يشاهد الملائكة بذواتهم على ما هم عليه

---

(١) تقدم.

ويخاطبهم ويخاطبونه، وكل من قال: إن الولي لا يشاهد الملك ولا يكلمه فذاك دليل على أنه غير مفتوح عليه.

* **قلت**: وكذا قال الحاتمي - قدس سره - في «الفتوحات المكية» في الباب الرابع والستين وثلاثمائة: غلط جماعة من أصحابنا منهم الإمام أبو حامد الغزالي في قولهم في الفرق بين النبي والولي: إن النبي ينزل عليه الملك، والولي يلهم ولا ينزل عليه الملك[1].

فقال الشيخ: والصواب أن الفرق فيما ينزل به الملك: فالولي إذا نزل عليه الملك فقد يأمره بالاتباع، وقد يخبره بصحة حديث ضعفه العلماء، وقد ينزل عليه بالبشرى من الله وأنه من أهل السعادة والأمان كما قال تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [يونس:٦٤].

وقال الحاتمي: وسبب غلط هؤلاء ظنهم أنهم عموا طرق الله بسلوكهم، بحيث لما لم ينزل عليهم ملك ظنوا أنه لم ينزل على غيرهم، ولا ينزل أصلاً على ولي، ولو سمعوا من ثقة نزوله على ولي لرجعوا عن قولهم؛ لأنهم يصدقون بكرامات الأولياء، وقد رجع لقولي جماعة كانوا يعتقدون خلافه. انتهى ملخصًا[2].

---

(١) انظر: الفتوحات المكية (٥/ ٣٤٤).

(٢) قال الشيخ الشعراني في «مختصر الفتوحات» ما نصه: «**وقال في الباب الرابع والثلاثين ما معناه**: جميع الحواس المدركة للأشياء ما عدا العقل إدراكها ضروريٌّ، ولكن الأشياء التي ارتبطت بها عادة لا يخطأ أبدًا، وقد غلط في هذا جماعة من الحكماء ونسبوا الغلط للحس، وليس كذلك، وإنما الغلط للحاكم على الحس. **قال**: وسبب غلطهم في نسبة الغلط إلى الحواس: أنهم رأوا إذا كانوا في سفينةٍ تجري بهم مع الساحل، رأوا الساحل يجري بجري السفينة؛ فقد أعطاهم البصر ما ليس بحقيقةٍ ولا معلومٍ أصلاً؛ فإنهم عالمون علمًا ضروريًّا أن الساحل لم يتحرك من مكانه، ولا يقدرون على إنكار ما شاهدوه من التحرك، وهكذا إذا طعموا سكرًا أو عسلاً فوجد مرارة وهو حلوٌ، فعلموا ضرورة أن حاسة الطعم غلطت عندهم ونقلت ما ليس بصحيح. **قال**: والأمر عندنا ليس كذلك، ولكن القصور والغلط وقع من الحاكم الذي هو العقل، لا من الحواس؛ فما غلط حس قط، وتقدم أيضًا ذلك قبيل الباب السابع عشر أيضًا. **وقال**: إن لله تعالى عبادًا خرق لهم العادة في إدراكهم العلوم؛ فمنهم من جعل له إدراك ما يدرك لجميع القوى من المعقولات والمحسوسات بقوة البصر خاصة، وآخر بقوة السمع، وهكذا بجميع القوى، ثم أيضًا بأمورٍ عرضيةٍ خلاف القوى من ضربٍ وحركةٍ وسكونٍ وغير ذلك. قال رسول الله ﷺ: «**إن الله ضرب بيده بين كتفي**

وإذا فهمت كلام الشيخ ﷺ في الفرق السابق علمت أن ما استصوبه الحاتمي ـ رحمه الله ـ في الفرق غير ظاهر؛ لأن حاصله أن الولي لا ينزل عليه الملك بالأمر والنهي، بخلاف النبي وليس كذلك، فإن الولي ينزل عليه الملك بالأمر والنهي، ولا يلزم منه أن يكون ذا شريعة كما في قصة مريم، فإن الملك نزل عليها بالأمر وليست نبية كما سبق.

ولو أفشينا ما سمعنا من الشيخ ﷺ في هذا الباب لكان آية للطالبين وعمدة للراغبين، ولكنه سر لا يفشى، إلا أني أحببت أن أذكر هنا أمرين من علوم الشيخ ﷺ أحدهما بعض ما يشاهده المفتوح عليه.

فقال ﷺ:

أمّا في المقام الأول: فإنه يكاشف بأمور:

منها: أفعال العباد في خلواتهم.

ومنها: مشاهدة الأرضين السبع والسماوات السبع.

ومنها: مشاهدة النار التي في الأرض الخامسة، وغير ذلك مما في الأرض والسماء.

قال: وهذه النار هي نار البرزخ؛ لأن البرزخ ممتد من السماء السابعة إلى الأرض السابعة، والأرواح فيه بعد خروجها من الأشباح على درجاتها، وأرواح أهل الشقاوة ـ والعياذ بالله ـ في هذه النار، وهي على هيئة منازل ضيقة كالآبار والكهوف والأعشاش،

=

فوجدت برد أنامله بين يدي فعلمت علم الأولين والآخرين»؛ فدخل في هذا العلم كل معلوم معقول ومحسوس مما يدركه المخلوق، فهذا علمٌ حاصلٌ لا عن قوةٍ من القوى الحسية والمعنوية، فلهذا قلنا: إن العلوم قد تدرك بغير القوى المعتادة، وإنما جئنا بهذا كله تأنيسًا لما نريد أن ننسبه إلى أهل الله من الأنبياء والأولياء فيما يدركونه من العلوم على غير الطرق المعتادة؛ فإذا أدركوها نسبوا إلى تلك الصفة التي أدركوا بها المعلومات؛ فيقولون: فلان صاحب نظرٍ، أي: بالنظر يدرك جميع المعلومات. **قال**: وقد ذقت هذا في مشهدٍ مع رسول الله ﷺ، وفلان صاحب سمع، وفلان صاحب طعم، وفلان صاحب نفس وأنفاس يعني الشم، وفلان صاحب لمس، وفلان صاحب معين. **قال**: وقد وقع لي أني قاومت طائفة من أصحاب النظر، البصر بالبصر؛ فكدت أسألهم ويجيبوني، وأسأل واجبهم بمجرد النظر ليس بيننا كلام، ولا اصطلاح بالنظر أصلاً، فحصل لنا ولهم علومٌ جمة من غير كلامٍ، وأطال في ذلك.

وأهلها في نزول وصعود دائمًا، لا يكلمك الواحد منهم كلمة واحدة حتى تهوى به هاويته.

قال: وليست هذه النار هي جهنم؛ لأن جهنم خارجة عن كرة السماوات السبع والأرضين السبع، وكذلك الجنة، ومن الأشياء التي يشاهدونها اشتباك الأرضين بعضها ببعض، وكيف تخرج من أرض إلى أرض أخرى، وما تمتاز به أرض عن أرض أخرى، والمخلوقات التي في كل أرض.

ومنها: مشاهدة اشتباك الأفلاك بعضها ببعض، وما نسبتها من السماوات، وكيف وضع النجوم التي فيها.

ومنها: مشاهدة الشياطين، وكيف توالدها.

ومنها: مشاهدة الجن، وأين يسكنون.

ومنها: مشاهدة سير الشمس والقمر والنجوم والأصوات الهائلة التي هي مثل الصواعق القاتلة لحينها، فإن هذا يكون سمعه دائمًا، ويجب عليه ألا يستعظم شيئًا من هذه الأمور، وأن يستصغر كل ما يرى، وإلا وقف به الحال وصار أمره إلى الانتكاس؛ لأن الذات في زمن الفتح سفافة تسف كل ما تستحسنه، وهذه الأشياء المشاهدة كلها ظلام، فإذا ركن إلى شيء منها وقف في الظلام وانقطع عن الله ﷻ ولذا كان غير المفتوح عليه في ساحة الأمن، وكان المفتوح عليه في غاية الخطر إلا من عصمه الله.

وإذا كانت الذات قبل الفتح مفتونة مشغولة عن الله ﷻ بنحو اللوز والزبيب والحمص فضلاً عن الدراهم والدنانير والنساء والأولاد، فكيف لا يفتن بعد الفتح بمشاهدة العالم العلوي والسفلي ومساعدة الشياطين له على ما يريد ولا عصمة إلا بالله.

قال ﷺ: ومن وقف مع شيء من هذه الأمور السابقة كانت الشياطين معه يدًا بيد، وصار من جملة السحرة والكهنة ـ نسأل الله السلامة ـ ومن رحمه الله تعالى جذبه إليه وخلق فيه شوقًا وطلبًا قلبيًّا يخرق به هذه الحجب.

وأمّا ما يشاهده في المقام الثاني: فإنه يكاشف بالأنوار الباقية كما كوشف في المقام الأول بالأمور الظلمانية الفانية، فيشاهد في هذا المقام الملائكة والحفظة والديوان والأولياء الذين يعمرونه، ويشاهد مقام عيسى عليه السلام وكل من يضاف إليه وكان على شاكلته، ثم مقام

موسى عليه السلام وكل من معه، ثم مقام إدريس عليه السلام وكل من معه، ثم مقام يوسف عليه السلام وكل من معه، ثم مقام ثلاثة من الرسل متقدمين، منهم من كان قبل إدريس، ومنهم من تأخر عنه، أسماؤهم غير معروفة بين الناس، ولو شرحنا مقامات الأنبياء المذكورين وكيف يرى الملك على أصل خلقته لسمع السامع شيئًا لم يكن له على بال.

ويجب أيضًا على المكاشف بهذه الأمور ألّا يقف مع شيء منها لما سبق أن ذاته حينئذ سفافة، فإذا وقف مع شيء منها سفت ذاته أسراره حتى إنه إذا وقف مع مقام سيدنا عيسى مثلاً واستحسنه سقى بسره، ورجع في الحين على دينه، وخرج عن ملة الإسلام، نسأل الله السلامة.

ولا يزال المفتوح عليه على خطر عظيم وهلاك قريب حتى يشاهد مقام سيدنا ومولانا محمد ﷺ فإذا شاهده حصل له الهناء وتم له السرور؛ لأن في ذاته ﷺ قوة جاذبة إلى الله ﷻ اختصت بها ذاته الشريفة ﷺ من بين سائر المخلوقات، ولذا كان أعز المخلوقات وأفضل العالمين، فإذا وصل المفتوح عليه إلى مقام نبينا ﷺ تزايد جذبه إلى الله ﷻ وأمن من الانقطاع، وفي ذلك أسرار أخر يعرفها أرباب الفتح، جعلنا الله منهم ولا حرمنا بركتهم.

وأمّا المقام الثالث: فإنه يشاهد فيه أسرار القدر في تلك الأنوار المتقدمة.

وأمّا المقام الرابع: فإنه يشاهد فيه النور الذي ينبسط عليه الفعل، وينحل فيه كانحلال السم في الماء، فالفعل كالسم والنور كالماء، وفي هذا المقام يقع الغلط لكثير حيث يظنون أن ذلك النور هو الحق، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

وفي المقام الخامس: يشاهد انعزال الفعل عن ذلك النور، فيرى النور نورًا والفعل فعلاً، ويظهر له الغلط فيما ظنه أولاً.

وأضربنا عن ذكر أسماء المقامات وشرح معانيها واستيفاء أقسامها؛ لأن الغرض الإشارة إلى تحذير المفتوح عليه، وقد حصلت ـ والحمد لله ـ مع ما في شرح ذلك من الأسرار التي لا تذكر لأهلها إلا مشافهة، والأمر الثاني أنك قد علمت الفرق بين النبي والولي.

وأمّا الفرق بين النبي والملك: فهو أن الملك ذاته نورانية ركب الله تعالى فيها العقل والحواس.

سمعت الشيخ ﷺ يقول: في ذات كل ملك خمسة رءوس، لكل رأس يمين وشمال، وفوق وتحت، فله [في] فوق تسعة أفواه، مجموع ذلك ثلاثة وستون [فمًا][1] في كل رأس، فإذا ضربت عدد الرءوس الخمسة في عدة الأفواه السابقة كان الخارج ثلاثمائة فم وخمسة عشر فمًا، والفم يكون فيه ثلاثة ألسن، وقد يكون فيه خمسة ألسن، وقد يكون فيه سبعة ألسن، فإذا كان فيه ثلاثة فالخارج من ضربها في عدد الأفواه تسعمائة وخمسة وأربعون لسانًا، وإن كان فيه خمسة كان الخارج ألف لسان وخمسمائة لسان وخمسة وسبعين لسانًا، وإن كانت سبعة كان الخارج ألفي لسان ومائتي لسان وخمسة ألسن، وإذا تكلم الملك بكلمة خرج صوته بها من هذه الألسن كلها، فسبحان الملك الخلاق العظيم، فالمفتوح عليه إذا لم يؤيده الله تعالى بمزيد قوة من لدنه ينصدع قلبه عند سماع صوت الملك، فما ظنك بمشاهدة ذاته في أصل خلقتها!.

إذا سمعت هذا فذات الملك نور صاف ركب فيها عقل وحواس، فهو بمثابة الروح، فإنها خلقت من نوره، وفي ذلك النور عقل به تقع معرفته ﷻ من جميع ما سبق في أجزائها السبعة، وقد سبق أن علومها فطرية مقارنة لأصل نشأتها، فكذلك الملك فهو مفتوح عليه في أول أمره.

وأمّا النبي فذاته مخلوقة من تراب، وقد حجبت الروح مع أسرارها في تلك الذات الترابية، والتراب بطبعه يقتضي الحجب إلا أن ذات النبي لما أمدها الله تعالى في أصل نشأتها بنور النبوة زال منها الظلام ورق الحجاب، فصار صاحبها بمثابة ضجيع الحق دائمًا، قريب من الله ، قريب من الحق، لا يتحرك إلا في الحق، ولا يسكن إلا فيه، إذا سكت سكت على الحق، وإذا تكلم تكلم بالحق، أمره كله حق، حتى إنه لو فرض أنه خلق بين قوم نشأوا على الضلال لكان [منابذًا][2] لهم ومناقضًا لهم في جميع حركاتهم وسكناتهم لمجرد الحق في حشو ذاته، وإن لم يسمع شرعًا ولا أمرًا ولا نهيًا، فهذه حالة كل نبي في أصل نشأته وبداية أمره

---

(١) سقطت من (أ).

(٢) في (ب): مباينًا.

وقبل أن يفتح عليه، فأمّا إذا وقع الفتح وزال الحجاب بين الروح والذات بالكلية وصار في حضرة الشهود دائمًا فلا تسأل عن زاخر بحوره التي لا ساحل لها، فعند ذلك لا يطيقه الملك ولا غيره من المخلوقات، والله تعالى أعلم.

ـ **وسألته** ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء:٨٧] كيف يظن عدم القدرة عليه وخروجه عن إحاطة ربه؟ فإن هذا يبعد صدوره من أدنى ضعفة الموحدين، فكيف بالأنبياء والمرسلين؟!

فقال ﷺ: معنى مغاضبًا ـ أي: غاضبًا عليهم ـ حيث تركوا ما فيه رشدهم وصلاحهم من الإيمان به والاستسلام لأمره حتى نزل بهم أمر الله تعالى وعذابه بحسب ما يظهر للناظر، فإن العذاب كان فوق مساكنهم، فلما رأى ذلك يونس عليه السلام غضب و﴿أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [الصافات:١٤٠] وأمّا قوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء:٨٧] فمعناه: إنه ظن أن لن نهلكه بما أهلكناهم؛ وذلك أنه لما رأى أمارة العذاب فرّ عنهم ظانًّا النجاة وأنه لا يصيبه ما أصابهم، بمنزلة رجل رأى نارًا مقبلة لا تخص هذا دون هذا، أو رأى سيلاً جاريًا لا ينجو منه ما وقف له، ففرّ منه ظانًّا أن فراره ينجيه من تلك النار أو من ذلك السيل، فهذه كانت حالته عليه السلام فإنه لما رأى العذاب نازلاً بقومه وظن أنه إن بقي معهم أصابه ما أصابهم فرّ منهم ظانًّا أنه لا يصيبه ما أصابهم لأجل فراره، فأراه الله تعالى نوعًا آخر من القدرة لم يكن في ظنه عليه السلام ﴿فَـ﴾ لما رأى ذلك ﴿نَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧] استجاب له ربه ونجاه ﷻ وكانت القصة بعد ذلك آية للذاكرين، وأسوة للأوابين، وتسلية للمصابين، وفتح باب فرج للسائلين، ألا تراه يقول: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء:٨٨] ففراره عليه السلام لظنه النجاة من العذاب النازل بقومه، لا إعجازًا للقدرة وخروجًا عن إحاطة سيده به.

* **قلت**: وهذا أحسن ما قيل في الآية، فإن للمفسرين فيها أوجهًا كثيرة من تأملها علم أن هذا أحسنها، والله تعالى أعلم.

ـ **وسألته** ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٣] ما المراد بالضر الذي مسه؟ وهل ما يقوله أهل التفسير في مرض

أيوب عليه السلام صحيح أم لا؟ وكذا ما يذكرونه في طول مدة ضره؟ وذكرت له كلام الحافظ ابن حجر في «الفتح» في أحاديث الأنبياء منه، فلينظره من أراد الوقوف عليه في «ترجمة أيوب» عليه السلام.

فقال رضي الله عنه: الضر الذي مسه هو الالتفات إلى غيره تعالى، وهو أعظم ضر عند العارفين به ﷻ من الأنبياء والمرسلين، فهذا هو الضر الذي سأل أيوب عليه السلام من ربه أن يرفعه عنه، لا ضر مرض بدنه، فإن هذا يقربه من الله ﷻ والذي يبعده من ربه ﷻ هو ضر الالتفات إلى غيره تعالى والانقطاع عنه ولو في لحظة من اللحظات.

وأمّا المرض الذي يذكره المفسرون والمؤرخون فلم يكن، ومدة مرضه كانت شهرين وزيادة أيام عينها لي الشيخ رضي الله عنه ونسيتها، والله تعالى أعلم.

ـ **وسألته** رضي الله عنه عن قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى**﴾ [طه:١٢٤] ما المراد بالمعيشة الضنك؟ فإنه إن أريد بذلك ضيق المعيشة أشكل الأمر بأن كثيرًا من الكفرة فيهم أغنياء، ولا شك أن معيشتهم واسعة لا ضيقة، والآية تقتضي أن كل معرض عن ذكره تعالى معيشته ضيقة.

فقال رضي الله عنه: يسبق إلى العقول في الدنيا ما تصير إليه الذوات في الآخرة، وقد قضى تبارك وتعالى على الكفرة بالخلود في جهنم، فالكافر لا تمر عليه ساعة إلا ويتكدر عليه حاله لما يسبق إلى قلبه من الوسوسة، فإن الوسواس يحرك عليه الهم ويكدر عليه أمره، وأقله أن يقول له: لعلك لست على دين صحيح. فهذا هو الأمر الذي يقذفه الله في قلوب الكفرة، وبه تضيق معيشتهم، ولو كانوا أغنياء أو ملوكًا فالمراد بضيقها ضيقها في القلوب لا في اليد، فإن من كانت بيده دنيا واسعة وعلم أن مصيره إلى سخط الله ضاقت معيشته [لا محالة].

* **قلت**: وهذا الذي قاله الشيخ في غاية الحسن، وقد قال البيضاوي مشيرًا إلى تفسير ضيق المعيشة: وذلك لأن مجامع همه ومطامح نظره إلى أعراض الدنيا متهالكًا إلى ازديادها، خائفًا على انتقاصها، بخلاف المؤمن الطالب للآخرة. انتهى الغرض منه.

* **قلت**: وقد أخبرني بعض الفقهاء، وكان الكفرة أسروه سبع سنين أنه لم يزل منذ كان تحت أسرهم يناظرهم ويناظرونه.

قال: وطال اختباري لهم وكثرة مراجعتي لهم حتى بان لي أن غالبهم على شك، فهم لمرض قلوبهم بمثابة الأجرب الذي يبتغي من يحك له، فإذا أحسوا [بطالب][1] من [طلبة][2] الإسلام أسرعوا إليه وسألوه وتباحثوا معه، ثم لا يزيدون على أن يقعوا في حبالته بأدنى كلام يصدر منه لهم.

قال: وهذا حكم الأوساط منهم، وأمّا كبراؤهم وأساقفتهم وذوو رأيهم فحصل لي من طول اختباري لهم وكثرة مناظرتي معهم أنهم جازمون بأنهم على الضلال والباطل ﴿وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ [يوسف:٢١].

قال: ولم أزل في مناظرتهم حتى ذكروا لي أن حبرًا من أحبارهم بموضع كذا إليه انتهى علم الكتب السابقة، فانتهيت إليه فوجدته بحرًا لا ساحل له، يستحضر نصوص التوراة والإنجيل والزبور والقرآن العزيز، وكثيرًا من أحاديث نبينا ﷺ وبعض أشعار امرئ القيس الكندي.

فقلت له: إني جئت لأسألك عن مسألة هي أكبر همومي، أغمتني وأسهرتني وأدامت حزني.

فقال: وما هي؟

فقلت: إني منذ كنت في بلاد الإسلام لم أزل أسمع أن دين الإسلام حق، وأن دين النصارى ضلال، وحين وقعت في بلادكم انعكس الأمر عليّ، فأسمعهم يقولون: إن دينهم حق ودين الإسلام على غير حق، وأظهرت له أنه حصل لي شك بسبب ذلك، وإني سألت عن أعلم أهل النصرانية فاتفقت كلمتهم عليك، ولم يختلف اثنان في أنك سيدهم وأعلمهم، وقد فرض الله على الجاهل أن يسأل العالم، فأردت منكم أن تجيبوني بما هو الحق عندكم في هذه المسألة؛ لأتخذ جوابكم يوم القيامة حجة فيما بيني وبين ربي ﷻ فأنا جاهل وأنت عالم، وقد فرض الله على الجاهل أن يسأل، وعلى العالم أن يقول الحق وينصح لله.

فوقع السؤال منه غاية الموقع، ووضع جبهته على كفه وسكت طويلاً، وجموع

---

(١) في (ب): بعالم.

(٢) في (ب): علماء.

النصارى جالسون معه، فرفع رأسه وأَسَرَّ إليّ في أذني: لا دين إلا دين الإسلام، فهو الحق الذي لا يقبل الله غيره، قم عني قبل أن يعلم النصارى بهذا الذي قلت لك.

ثم ذكر مناظرات وقعت له مع أحبارهم من هذا المعنى، في ذكرها خروج عن غرضنا، وإنما أردنا تأييد ما أشار إليه الشيخ ﷺ ومن ناظر اليهود والنصارى علم ما قاله الشيخ ﷺ.

وقد تكلمت أنا مع بعض أحبار اليهود فلم أزل أحاججه حتى بان لي في آخر أمره أنه جازم بأنه على باطل، وأنه ما منعه من الإسلام إلا العناد وخشية الفضيحة من قومه، وهي مناظرة طويلة حضرها جماعة من الفقهاء والقراء أصحابنا، وحضر مع اليهود بعض اليهود أيضًا.

وكذا تكلمت مع بعض أحبار النصارى فما وجدت عندهم شيئًا، والحكايات في هذا كثيرة، ومن أراد ذلك فعليه بـ«تحفة الأديب في الرد على أهل الصليب» تأليف عبد الله المَيورْقي بفتح الميم وتخفيف الياء وإسكان الراء، وكان من أحبارهم ثم أسلم، وكذا تأليف عبد الحق الإسلامي، وكان من أحبار اليهود ثم أسلم، وكذا تأليف أبي العباس القرطبي في الرد على النصارى، وفيه العجب العجاب، وفيه نحو من عشرين كراسة، ومن طالع هذه الكتب أو خالط أهل الكتابين علم يقينًا أن قلوبهم مرضى بالشك وجزم بأنهم على الضلال، فرضي الله عن سيدنا الشيخ ونفعنا به، والله تعالى أعلم.

ـ وسألته ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٢٤] ما الذي هم به؟

فقال ﷺ: هم بضربها.

ـ فسألته عما يذكره بعض المفسرين في ذلك، فأنكره غاية الإنكار، وقال: أين العصمة؟ والولي إذا وقع له الفتح نزع الله منه اثنين وسبعين عرقًا من عروق الظلام، فبعضها ينشأ عنه الكذب، وبعضها ينشأ عنه الكبر، وبعضها ينشأ عنه الرياء، وبعضها ينشأ عن حب الدنيا، وبعضها ينشأ عنه الشهوة ومحبة الزنا، وغير ذلك من القبائح، هذا في الولي، فكيف بالنبي الذي فطر على العصمة ونشأت ذاته عليها؟!

قال ﷺ: وقد يبلغ الولي إلى حالة يستوي [عنده] وفي نظره محل الشهوة وغيره، حتى يكون فرج الأنثى وهذا الحجر ـ يشير إلى حجر بين يديه ـ بمثابة واحدة، وكيف لا والمفتوح عليه لا يغيب عليه ما في أرحام الأنثى فضلاً عن غيره، وهو إنما ينظره بنور الله الذي لا يحضره شيطان ولا يكون معه ظلام أبدًا، فإذا كان هذا في حق الولي فكيف بالنبي المعصوم؟ جعلنا الله ممن يعرف للنبوة حقها، والله تعالى أعلم.

ـ **وسألته** ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٢٤] هل هذا خاص بموسى عليه السلام؟ وهل ما يذكر السادات الصوفية ﷺ من المكالمة حق مثل قول الشيخ العارف بالله أبي الحسن الشاذلي ﷺ في «الحزب الكبير»: وهب لنا مشاهدة تصحبها مكالمة؟

فقال ﷺ: ما ذكره الشيخ أبو الحسن ﷺ وغيره من الصوفية في المكالمة حق لا شك فيه، ولا يعارض ذلك الآية الشريفة؛ إذ لا حصر فيها.

قال ﷺ: وكلام الحق ﷻ يسمعه المفتوح عليه إذا رحمه الله ﷻ سماعًا خارقًا للعادة، فيسمعه من غير حرف ولا صوت، ولا إدراك لكيفية، ولا يختص بجهة دون جهة، بل يسمعه من سائر الجهات، بل ومن سائر جواهر ذاته، وكما لا يخص السماع له جهة دون أخرى، كذلك لا يخص جارحة دون أخرى؛ يعني: إنه يسمعه بجميع جواهره وسائر أجزاء ذاته، فلا جزء، ولا جوهر، ولا سن، ولا ضرس، ولا شعرة منه إلا وهو يسمع به حتى تكون ذاته بأسرها كأذن سامعة.

ثم ذكر اختلاف أهل الفتح في قدر السماع وبينه بما لا يذكر ـ نفعنا الله به ـ والله تعالى أعلم.

ـ **وسألته** ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ [النساء:١٠١] فما وجه التقييد بحالة الخوف مع أن قصر الصلاة جائز حتى في حالة الأمن؟

فقال ﷺ: التقييد المذكور ليس للإخراج حتى يكون المفهوم مخالفًا، بل للتنصيص على رفع الحرج عن هذه الحالة بخصوصها، وللتنبيه على الاعتناء بإدخالها في هذا الحكم؛ وذلك لأن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ كانوا يستكثرون من العبادة إذا خرجوا للجهاد

مخافة أن يكون ذلك آخر عهدهم من الدنيا، فكانوا يسرمدون العبادة حتى إن منهم من يجاهد في النهار ويبيت في الليل قائمًا لله تعالى راكعًا وساجدًا، فكانوا يرون من التقصير والحرج الشديد المنافي للتأهب للآخرة التقلل من العبادة إذا سافروا لغزو عدوهم، ويرون أن الصواب هو الإكثار منها حينئذ، ورسخ هذا في عقولهم، فأراد الله تعالى أن يزيل ذلك من قلوبهم فأنزل الحكم مقيدًا بالحالة التي يتوهمون منافاتها له، والله تعالى أعلم.

ـ ولما انجر الكلام إلى المفهوم سألته عن مفهوم قوله ﷺ: «**فِي الْغَنَمِ السَّائِمَةِ زَكَاةٌ**»[1].

فقال ﷺ: هي المريضة التي لا تقدر على رعي، فإذا بلغت الغنم إلى هذه الحالة سقطت الزكاة فيها؛ لأن الزكاة تتبع نعمة الملك، والغنم إذا بلغت إلى حد سقطت فيه أكلها ورعيها لم تبق فيها نعمة ملك توجب زكاة؛ لأن الغالب حينئذٍ موتها وهلاكها، فهذا هو مقصود النبي ﷺ.

فقلت: إن الشافعي يقول: إن المفهوم هي المعلوفة.

فقال ﷺ: المعلوفة داخلة في منطوق الحديث؛ لأنها سائمة بالطبع، وإنما منعت من الرعي، ولو خليت وطبعها لم تترك السوم، ومالكها هو الذي تكفل لها العلف ونعمة الملك محققة فيها.

ـ ثم سألته عن اختلاف المجتهدين في المفهوم، فقال بعضهم باعتباره مطلقًا، وقال بعضهم بإلغائه مطلقًا، وفصل بعضهم على ما هو معروف في الأصول.

فقال ﷺ: المفهوم لا تمكن معرفته على الحقيقة إلا لرجل عرف البواعث والأغراض الحاملة للنبي ﷺ على التقييد، ولا يمكن ذلك إلا بمعرفة باطنه الشريف ﷺ ولو أن رجلاً منا أودع في أحكامه تقييدات ثم غاب عنا فإنه لا يمكننا الجزم بمراده بتقييداته إلا بمعرفة ما عنده فيها، وليس ذلك إلا بسؤاله إذا كان حيًّا حتى يفصح عن مراده، فإذا لم يسأل عن مراده حتى مات تعذر معرفة مراده.

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٥، رقم ٤٦٣٤)، وأبو داود (٢/ ٩٨، رقم ١٥٦٨)، والترمذي (٣/ ١٧، رقم ٦٢١) وقال: حسن. وابن ماجه (١/ ٥٧٣، رقم ١٧٩٨)، والحاكم (١/ ٥٤٩، رقم ١٤٤٣)، والبيهقي (٤/ ٨٨، رقم ٧٠٤٤).

وعلى هذا فمن أطلق القول باعتبار المفهوم مطلقًا أو بعدم اعتباره مطلقًا فقد سلك بالتقييدات مسلكًا واحدًا، وذلك لا يصح؛ لأن الأغراض الحاملة على التقييد مختلفة:

فمنها: ما يقتضي المخالفة في الحكم.

ومنها: ما يقتضي الموافقة.

وكذا من فصل على الوجه الذي يقوله الأصوليون، فمن ألغى العدد مطلقًا واعتبر الشرط مطلقًا فقد سلك بتقييد العدد مسلكًا واحدًا وبتقييد الشرط مسلكًا واحدًا، وذلك مناف للأغراض الحاملة على التقييد بهما.

وبالجملة: فالتقييدات الشرعية لا يعرفها على الحقيقة إلا أكابر أهل الفتح كشيخنا ﷺ فإني أكثرت الخوض معه في هذا الباب بعد تحصيلي وإحاطتي بما قاله الفحول أهل الأصول في المفاهيم، مثل: إمام الحرمين في «البرهان»، والإمام أبي حامد في «المستصفى»، والإمام أبي الوليد الباجي في «الفصول»، والأبياري والإمام علي بن إسماعيل في «شرح البرهان»، والإمام أبي عبد الله بن الحاج العبدري في «شرح المستصفى» إلى ما ذكره تاج الدين السبكي في «جمع الجوامع» و«شروحه» و«حواشيه» وغير ذلك، فحصلت هذا كله.

ثم تكلمت مع الشيخ ﷺ في ذلك أيامًا فسمعت منه والله ما يفوق أهل الاجتهاد، وكيف لا وهو من أهل مشاهدة النبي ﷺ دائمًا، رزقنا الله رضاه ومحبته، وحشرنا في زمرته وحزبه آمين؟!.

ـ وسألته ﷺ عن قوله تعالى في حق إبراهيم عليه السلام: ﴿**فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي**﴾ [الأنعام:٧٦] هل كان هذا من إبراهيم عليه السلام استدلالاً لنفسه ونظرًا في مصنوعات الله ﷻ ليرتقي به إلى الحق؟ أو هو استدلال لقومه على سبيل التبكيت والتسكيت لهم؟ فأورد دعواهم على سبيل التسليم، ثم كر عليها بالإبطال، فإن المفسرين ـ رضوان الله عليهم ـ اختلفوا في ذلك.

فقال ﷺ: كان ذلك منه على سبيل الاستدلال لنفسه، ولكن ليس كاستدلال سائر الناس، فإن استدلال الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ليس كاستدلال سائر الناس، فإنهم ـ عليهم الصلاة والسلام ـ في غاية المعرفة بالله تعالى وعلى كمال العبودية له ﷻ ونهاية

الخوف الخضوع له تعالى لما طبعت عليه ذواتهم من معرفة الحق والميل إليه.

وإنما معنى استدلال إبراهيم عليه السلام في هذه الآية: هو أنه يطلب أن يرى بعين رأسه ما كان يراه في باطنه وبصيرته، فهو يعرف الله تعالى المعرفة التامة بالبصيرة، ويريد أن تخرق [بصيرته][1] إلى بصره، فجعل يطلب ببصره في هذه الموجودات ما يناسب معروفه في بصيرته، فنظر إلى النيرات المذكورات في الآية فوجدها لا تناسب المنزه المقدس ﷻ فتبرأ منها جميعًا إلى ما يعرفه ببصيرته، وهو الذي فطر السماوات والأرض جميعًا ﷻ.

ومثال ذلك على سبيل التقريب، كمثل ولي مفتوح عليه نظر ليلة تسع وعشرين إلى الهلال فرآه ببصيرته قد استهل، ثم نظر إليه ببصره فلم يره، فجعل يطلبه ببصره مع من يطلبه، فمن نظر إليه ولا يعرف ما في باطنه قد يظن به أنه على شك في استهلال الشهر كسائر من يطلبه من الحاضرين، ومن علم ما في بصيرته أيقن بأنه جازم باستهلاله وأنه مشاهد ببصيرته، وإن طلبه معنى إنما هو لتحصيل مشاهدة البصر لا غير، بخلاف غيره من الحاضرين فإنه على شك في استهلاله ظاهرًا وباطنًا، فهذا هو الفرق بين استدلال الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ واستدلال المحجوبين، فيجب تنزيه استدلال الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ عن الجهل بالله والشك فيه، وكل ما ينافي العلم الضروري به ﷻ للعصمة التي خصوا بها، وهي تنافي الشك والجهل به تعالى؛ لأنهما نوعان من الكفر، وهم ـ عليهم الصلاة والسلام ـ معصومون من الصغائر، فكيف بالكبائر، فكيف بما هو من نوع الكفر؟!.

* **قلت**: هذا كلام في غاية العرفان، وقد وقع لي معه ﷺ مما لا أحصيه أنه في ليلة تسع وعشرين يخبرنا باستهلال الشهر وهو تحت سقف في داره أو في المسجد أو في غير ذلك، ثم لا نزال جلوسًا في مكاننا حتى يقدم علينا الخبر باستهلاله، وقد اتفق لنا معه غير ما مرة أن يخبرنا عند الاصفرار مثلاً باستهلاله، فنطلب منه أن يخرج معنا إلى مراقبته، فنخرج جميعًا فلا يراه واحد منا لا هو ولا نحن؛ لدقته وعدم حدة أبصارنا، فلا نزال ننظر ولا نراه حتى يقدم من هو أحدّ منا بصرًا فيراه، ثم تستفيض رؤيته من كل ناحية.

وكثيرًا ما يقول لي ﷺ: هذا اليوم من رمضان والناس مفطرون؛ لأنه آخر يوم من

---

(١) في (ب): معرفته.

شعبان عندهم، أوهذا اليوم يوم عيد والناس صائمون؛ لأنه آخر يوم من رمضان عندهم، أو هذا اليوم يوم عرفة وهو الثامن فيما يظنه الناس، ثم بعد ذلك يرد الخبر من أماكن بعيدة على مسافة أربعة أيام ونحو ذلك بعين ما قاله الشيخ ﷺ والله تعالى أعلم.

ـ وسألته ﷺ عن قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْـهُدَى وَدِينِ الْـحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْـمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:٣٣] ما المراد بإظهاره على الأديان كلها؟ هل المراد به أنه ناسخ لها، أو المراد به سطوع حجته وظهور دلالة صحته أو غير ذلك؟

فقال ﷺ: هذا الدين الظاهر أظهره الله على الأديان كلها من كل وجه، من جهة [أنه] ناسخ لها، ومن جهة سطوع حجته، ومن جهة كثرته على وجه الأرض، حتى إن الأديان بالنسبة إليه كلا شيء، وذلك أن من فتح الله بصيرته ونظر إلى وجه الأرض عامرها وغامرها رأى في كل موضع أقوامًا يعبدون الله تعالى ويقدسونه وهم على الدين المحمدي، والأرض عامرة بهؤلاء السادات ﷺ فهم في هذا البر وفي ذلك البر ـ يعني: بر أهل الكفر ـ وفي الكهوف والجبال والسهول، وفي عامر الأرض وغامرها.

ومما اختص به هذا الدين الشريف ـ جعلنا الله من أهله ـ أن فيه نورًا يمنع الأمة المشرفة الآخذة به من الارتداد والرجوع إلى الكفر؛ وذلك لمحبة الله تعالى في هذا النبي الكريم ﷺ فجمع له في دينه خصالاً كثيرة مجموعها عاصم لأمته الشريفة من الارتداد، بخلاف غيره من الأديان فإنه لم يستوف الخصال المانعة من الردة.

قال ﷺ: ومن نظر إلى اللوح المحفوظ ونظر فيه إلى المرسلين وإلى شرائعهم التي هي مكتوبة فيه علم دوام شريعة نبينا محمد ﷺ وعدم ارتداد أمته، وذلك أن الله ﷻ خلق النور وخلق الظلام، ثم خلق العباد والأمم، ثم جعل للنور أبوابًا يدخل منها على ذواتهم، وجعل للظلام أبوابًا يدخل منها على ذواتهم، ثم شرع الشرائع وأرسل المرسلين بها ليفتح بها ـ أي: بالشرائع ـ أبواب النور وهي الأوامر التي فيها، ويسد بها أبواب الظلام عن ذواتهم وهي النواهي التي فيها.

فالأوامر تفتح أبواب النور، والنواهي تسد أبواب الظلام، ولم يستوف في شريعة الأوامر الفاتحة للنور، والنواهي السادّة للظلام إلا في شريعة نبينا محمد ﷺ فلهذا كانت

فوق الشرائع كلها، وكانت أمته الشريفة فوق سائر الأمم، وإلى ذلك المعنى أشار النبي ﷺ بقوله: «لَا تَجْتَمِعُ أُمَّتِي عَلَى ضَلَالَةٍ»(١).

قال ﷺ: والمفتوح عليه إذا نظر إلى الأمم السابقة ونظر إلى الأماكن التي كانوا يسكنونها في أزمنتهم رأى الظلام فوق مساكنهم على هيئة ضباب أسود مثل الدخان، ثم لا يزال الظلام [يخرج](٢) منهم وهم يتركون دينهم شيئًا فشيئًا إلى أن ينزل عليهم وتسقى ذواتهم به، فتصبح الأمة وقد خرجت عن دينها ـ نسأل الله العصمة ـ ثم لا تهتدي إليه أبدًا، فهذا وجه من وجوه إظهار هذا الدين على سائر الأديان.

* **قلت**: وسيأتي ـ إن شاء الله تعالى ـ التعرض لشيء من أبواب الظلام، وما في ذلك من العبرة للمعتبرين، والله تعالى أعلم.

ـ **وسألته** ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [التوبة:٧٥] فإن المفسرين ذكروا أنها نزلت في ثعلبة بن حاطب، فإنه جاء إلى النبي ﷺ وطلب منه أن يدعو له بكثرة الدنيا، فقال له النبي ﷺ: «يَا ثَعْلَبَةُ، قَلِيلٌ تَشْكُرُ عَلَيْهِ خَيْرٌ مَنْ كَثِيرٍ لَا تُطِيقُ شُكْرَهُ» فلم يزل يراجع النبي ﷺ حتى قال: والله يا رسول الله، إني لأشكر الله على الكثير، وعاهد الله لئن آتاه الله مالاً كثيرًا ليتصدقن، فدعا له النبي ﷺ فكثرت ماشيته ونمت كما ينمو الدود، وكان يصلي مع النبي ﷺ الجماعة والجمعة، فلما كثرت ماشيته خرج بها وفاتته الجماعة وبقي يحضر الجمعة، ثم كثرت ماشيته حتى ما أمكنه أن يحضر الجمعة من شغله بها، فسأل عنه النبي ﷺ فقال: «أين ثعلبة؟» فقالوا: يا رسول الله، كثرت ماشيته وشغلته عن حضور الجمعة والجماعة، فقال النبي ﷺ: «ويح ثعلبة» فبعث ﷺ مصدقين لأخذ الزكاة فاستقبلهما الناس بزكواتهم، فمرا بثعلبة فسألاه الصدقة، وَأَقْرَآهُ الكتاب الذي فيه الصدقة والفرائض، فقال ثعلبة: ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية، فارجعا حتى أرى رأيي، فنزلت الآية، فجاء ثعلبة بالصدقة، فقال ﷺ: «إِنَّ اللهَ مَنَعَنِي أَنْ أَقْبَلَ مِنْكَ» فجعل يحثو التراب على رأسه، فقال ﷺ:

---

(١) قال العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٢٠٠٠): رواه أحمد والطبراني في الكبير وابن أبي خيثمة في تاريخه عن أبي نضرة الغفاري رفعه في حديث: سألت ربي أن لا تجتمع أمتي على ضلالة فأعطانيها. قال الشيخ الكتاني في «نظم المتناثر» (١/ ٢٠): بمعناه متواتر.

(٢) في (ب): يقرب.

«**هذا عملك، أمرتك فلم تطعني**»[1] فلما قبض النبي ﷺ جاء بصدقته إلى أبي بكر فلم يقبلها، ثم جاء بصدقته إلى عمر فلم يقبلها، وهلك في زمن عثمان.

قال الحافظ السيوطي في «حاشية البيضاوي»: أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والطبراني والبيهقي في «شعب الإيمان» من حديث أبي أمامة.

فقلت للشيخ ﷺ: هل كان هذا الرجل في الصحابة؟ وهل هذه الحكاية صحيحة؟

قال ﷺ: نظرت فلم أر أحدًا من صحابة النبي ﷺ وقع له مثل هذا الذنب، ولا رأيت لهذه الحكاية وجودًا.

* **قلت**: وكذا أشار الحافظ ابن حجر في كتاب «الإصابة في الصحابة» إلى إنكاره الحكاية وعدم مجيئها من طريق يعتد بها، فانظره في «ترجمة ثعلبة» المذكور في الكتاب المذكور، فإني نقلته بالمعنى وقد طال عهدي به، والله تعالى أعلم.

ـ **وسألته** ﷺ عن قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ**﴾ [الأعراف:١٧٢] هل كانت في عالم الأرواح، أو حين خلق الله آدم وأخرج ذريته من ظهره، وركب فيهم العقل والنطق حتى أجابوا بما أجابوا، أو الآية إنما هي من باب الاستعارة التمثيلية، وذلك بأن شبه تمكين بني آدم من العلم بربوبيته تعالى ووحدانيته وتمكنهم من ذلك، حيث نصب لهم الدلائل على الربوبية، وركب فيهم العقول التي يفهمون بها بالإشهاد والاعتراف، فالتمكين بمثابة الإشهاد، والتمكن بمثابة الاعتراف على طريق الاستعارة التمثيلية.

فقال ﷺ: القصة كانت في عالم الأرواح، ولما أراد الله تعالى أن يشهدهم على أنفسهم أمر إسرافيل فنفخ في الصور، فحصل للأرواح هول عظيم مثلما يحصل للناس يوم القيامة عند نفخة البعث أو أشد من ذلك، ثم أزال تعالى الحجاب عنهم حتى أسمعهم كلامه القديم، وعند ذلك افترقت الأرواح بحسب قوة أنوارها وضعفها.

فمن الأرواح من أجاب محبة وهي أرواح المؤمنين، ومنها من أجاب كرهًا وهي أرواح الكافرين، ثم الذين أجابوا محبة اختلفت مراتبهم أيضًا:

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣٦/ ١٢٨)، والبيهقي في الدلائل (٥/ ٣٧٥).

فمنهم: من قوي عند سماع الكلام القديم.

ومنهم: من ضعف.

ومنهم: من لم يزل يتمايل طربًا من لذة سماع الكلام القديم.

ومنهم: من جعله الله رحمة، فجعل يمد غيره حتى تحصل له القوة، فظهرت مراتب الأشياخ والمريدين، فمن ذلك اليوم تعارفت أرواحهم، ثم إن الأرواح بأسرها غلبتها سطوة الكلام القديم، فجعلت تتطاير من أمكنتها في البرزخ وتنزل إلى الأرض لتستريح.

فانقسمت الأماكن بحسب النزول فيها إلى ثلاثة أقسام:

قسم: لم ينزل فيه إلا أرواح المؤمنين طائفة بعد طائفة.

وقسم: لم ينزل فيه إلا أرواح الكافرين طائفة بعد طائفة أيضًا.

وقسم: نزل فيه الفريقان معًا.

فأمّا القسم الذي لم ينزل فيه إلا أرواح المؤمنين، فهو الموضع الذي يسكنه أهل الإيمان بالله ومعرفته، ولا يسكن فيه كافر أبدًا عكس القسم الثاني، وأمّا الثالث فإنه يسكنه الفريقان معًا، وآخرهم نزولاً فيه هو المختوم له به، فإن كان من أرواح السعداء ختم له بأهل الإيمان، وإن كان العكس فالعكس.

وقد ينزل في الموضع فريق من أرواح السعداء، ثم فريق من أرواح الأشقياء، ثم فريق من أرواح السعداء، ثم فريق من أرواح الأشقياء، وهكذا حتى يقع الختم، فالمفتوح عليه إذا نظر إلى الموضع يعمره اليوم أهل الشرك يعلم هل يعمره المؤمنون بعدهم أم لا؟ وذلك بأن ينظر إلى نزول الأرواح إلى الأرض يوم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:١٧٢] ثم ينظر إلى ما نزل بعد هذه الطائفة الموجودة، فإن لم يكن إلا أرواح الكفرة علم أنه لا يسكنها أهل الإسلام أبدًا، وإن نزل بعد هذه الطائفة شيء من أرواح السعداء علم أنها ستكون دار إسلام.

قال ﷺ: ويعرف ذلك أيضًا بوجهين آخرين:

أحدهما: أن ينظر إلى أرض الشرك، فإن وجد أهل الفتح والولاية يزيدون فيها علم

أنها ستصير دار إسلام، وإن نظر إليها فلم ير لهم فيها وجودًا أصلاً علم أنها دار مغضوب عليها.

فقلت للشيخ ﷺ: فإذا فتح على واحد وهو في أرض الشرك فكيف يفعل؟

فقال ﷺ: يمده أهل الغيب ويذهبون إليه بذواتهم ويعلمونه علم الظاهر، فإن علم الباطن إذا لم يكن معه علم الظاهر قلّ أن [يفتح على][1] صاحبه.

وقال لي مرة أخرى: إن علم الباطن بمثابة من كتب تسعة وتسعين سطرًا بالذهب، وعلم الظاهر بمثابة من كتب السطر المكمل المائة بالمداد، ومع ذلك فإذا لم يكن ذلك السطر الأسود مع سطور الذهب المذكورة لم تُفد شيئًا وقل أن يسلم صاحبها.

وقال لي مرة أخرى: إن علم الظاهر بمثابة الفنار الذي يضيء ليلاً، فإنه يفيد في ظلمة الليل فائدة جليلة، وعلم الباطن بمثابة طلوع الشمس وسطوع أنوارها وقت الظهيرة، فربما يقول صاحبه: لا فائدة لهذا الفنار الذي في يدي، قد أغناني الله عنه بضوء النهار فيطفئه، وعند ذلك يذهب عنه ضوء النهار ويعود إلى ظلام الليل، فبقاء ضوء نهاره مشروط بعدم انطفاء الفنار الذي بيده.

قال ﷺ: وكم من واحد زلَّ في هذا الباب ولا يرجع له ضوء نهاره إلا إذا أخذ الفنار وشعله مرة ثانية، وقد يوفقه الله لذلك وقد لا يوفقه، نسأل الله العصمة بمنه وكرمه.

والوجه الثاني: أن ينظر إلى أرض المشركين، فإن وجد المساجد عامرة والجماعة تقام فيها غيبًا علم أن الأرض ستصير إلى أهل الإسلام، وإن لم ير فيها ذلك علم أن الأرض مطموسة مكسوفة.

وذكر ﷺ حكايات في هذا الباب، ولعلنا نذكرها فيما يأتي إن شاء الله، والله تعالى أعلم.

ـ وسألته ﷺ عما وقع لإخوة يوسف؟

وسبب ذلك أنه رفع إليّ سؤال، ونص الغرض منه: هل الأنبياء معصومون قبل

---

(١) في (ب): يفلح.

النبوة كما هم معصومون بعدها؟ وهل إجماعًا أو على خلاف؟ وهل الصغائر في ذلك مثل الكبائر أم لا؟ فإذا فهم هذا عنا شيخنا فلا بد أن يسطر لنا ما عنده، وما الذي يجب ربط القلب عليه في إخوة سيدنا يوسف ـ على نبينا وعليهم الصلاة والسلام ـ هل هم أنبياء أم لا؟ وعلى أنهم أنبياء فما الجواب عما صدر منهم كما في علمكم؟

فكتبت هذا السؤال في «كناشي» وأردت أن أجيب عنه: أمّا عن عصمة الأنبياء فبما ذكره أهل العلم الكلامي مثل صاحب «المواقف» وغيره، وأمّا عما وقع لإخوة يوسف فبتأليف وقع في يدي للحافظ السيوطي وسماه «دفع التعسف عن إخوة يوسف» فأردت أن ألخصه في الجواب.

ثم إن الشيخ ﷺ وقف على السؤال في «الكناش» فكتب بخط يده الكريمة ما نصه:

الجواب ـ والله الموفق للصواب ـ أن الأنبياء ـ عليهم أفضل الصلاة والسلام ـ معصومون قبل النبوة وبعدها، والذي صدر من إخوة يوسف ـ عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ـ مأمورون به في بواطنهم، والأمر من عند الله، ومعاتبتهم على ذلك على حسب الظاهر فقط؛ لأن الغيب سر مع الله، والسلام.

وكتبه عبيد ربه أحمد بن مبارك السجلماسي اللمطي، كان الله له آمين. انتهى.

ونسب الجواب إليّ ـ ونفعنا الله به ـ لأن السؤال وُجه إليّ.

قال ﷺ: وغالب معاتبة الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ من هذا المعنى، وذلك كأن يأمرهم الله تعالى في الباطن بأمر وقد أمرهم في الظاهر بخلافه، وهذه هي ذنوبهم فيما يظهر لهم، عليهم الصلاة والسلام.

فقلت: فإذا كان الفعل بأمر من الله تعالى باطني فأي ذنب يقع؟ وما معنى العتاب عليه والفاعل إنما فعله بإذن؟

فقال ﷺ: نعم، ولكنه إذا رأى الأمر الظاهري ووجد نفسه مخالفًا له ظهر له في عينه أن ذلك ذنب؛ لأن مجرد مخالفة الظاهر عنده ذنب.

فقلت: هذا ظاهر في رؤيته إياه ذنبًا وليس بظاهر في العتاب، فإن الذي أمره ظاهرًا هو الذي أمره باطنًا، والأمر الباطني كالناسخ أو التخصيص للأمر الظاهري وحينئذ فلا عتاب.

فقال ﷺ: نزول الوحي يتبع خواطر الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فإذا خطر ببال النبي شيء أو تحدث به في نفسه نزل الوحي به، وهو إذا ظهر له أنه أذنب تحدث به في نفسه وجعل يعاتبها فينزل الوحي بالعتاب تبعًا للخاطر.

قال ﷺ: ومن أراد أن يعرف خواطر الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وما كانت تتحدث به أنفسهم فلينظر إلى الكتب المنزلة عليهم، فإنها جارية على ما في خواطرهم، فإذا نصحت الكتب فهم تحدثوا بالنصيحة وأحبوها للخلق، وإذا بشرت الكتب فهم قد انبسطوا وأحبوا للناس ما فيه ربحهم، وإذا أنذرت وأغلظت في الوعيد فهم قد انقبضوا وحصل لهم انكماش، وبهذا تظهر لك ثمرة عصمة الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وتعلم أن خواطرهم كلها حق، وأن وساوسهم كلها من الله تعالى.

ـ وقد سألته ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب:٣٧] كيف عاتب الله تعالى نبيه وهو سيد العارفين وإمام الأنبياء والمرسلين؟

فأجابني ﷺ **بهذا المعنى، فقال:** إنه ﷺ لما شاوره زيد في طلاق زينب وأمره بإمساكها وتقوى الله في معاشرتها، وكان يعلم ﷺ أنها ستصير إليه، وأخفى ذلك ولم يظهره، رجع على نفسه بالعتاب وقال في خاطره تخشى الناس والله أحق أن تخشاه، وجعل يعاتب نفسه بهذا في الباطن، فأظهر الله ﷻ ما في باطنه ﷺ وأنزل الوحي به.

قال ﷺ: ومن فتح الله عليه وتأمل الكتب السماوية وجد فيها نور الكلام القديم ونور طبع الحالة التي يكون عليها النبي عند نزول الوحي عليه، وهو تارة يكون على حالة قبض فتنزل الآية وفيها نور الكلام القديم ونور القبض الذي كانت عليه الذات حينئذ.

وتارة يكون على حالة بسط فتنزل الآية وفيها نور الكلام القديم ونور البسط، والأول قديم والثاني حادث.

وتارة يكون على حالة تواضع فتنزل الآية وفيها نور الكلام القديم ونور التواضع.

هكذا كل آية لا تخلو عن شيء من طبع ذاته ﷺ وهكذا آية: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب:٣٧] فيها نور الكلام القديم ونور طبع ذاته ﷺ في حالة نزولها وهو نور العتاب، فالكلام القديم من الله لا منه، والعتاب منه لا من الله ﷻ.

قال ﷺ: وأهل الفتح ﷺ إذا تعاطوا تفسير القرآن فيما بينهم لم يكن لهم هم إلا أسباب النزول، وليس المراد بها أسباب النزول التي في علم الظاهر، بل الأحوال والأنوار التي تكون عليها ذات النبي ﷺ وقت النزول، فيسمع منهم في ذلك ما لا يكيف؛ لأنهم يخوضون في البحور التي في باطنه ﷺ أعني: بحر الآدمية والقبض والبسط والنبوة والروح والرسالة والعلم الكامل، وقد سبق ذلك في [معنى]: «**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ**»[1] والله تعالى أعلم.

ـ وقد سألته أيضًا عن قوله تعالى: ﴿**عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ**﴾ [التوبة:٤٣].

فأجابني ﷺ بما يقرب من هذا المعنى، فقال: إن النبي ﷺ أمره الله تعالى أن يعفو وأن يصفح الصفح الجميل، وأن يعاشر بالتي هي أحسن ويدفع بها حتى قال: ﴿**وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ**﴾ [آل عمران:١٥٩] فكانت هذه عادته مع الخلق، فلما جاءه أهل النفاق واستأذنوه في التخلف وذكروا أعذارهم، أذن لهم في التخلف وهو يعلم نفاقهم للرحمة التي فيه، ولما أمره به من المعاشرة بالتي هي أحسن وحضه عليها في غير ما آية، فسلك معهم مسلك الظاهر، ثم تحدث في باطنه بنزول آية تفضحهم، وإنما منعه هو من أن يباشر فضيحتهم للرحمة التي فيه ووصية الله له، فتحدث في باطنه بفضيحتهم على وجه يبين كونها من الله لا منه للحياء الذي فيه ﷺ مثل قوله تعالى: ﴿**إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ**﴾ [الأحزاب:٥٣] فأحب أن تنزل الآية في صورة العتاب له؛ لتكون أبعد عن التهمة، وأدخل في محض النصيحة، وأزجر لهم عن الاشتغال بالنفاق مع النبي ﷺ مرة أخرى، فإن الله تعالى هو وكيله على من ينافقه وخصيمه وحجيجه، فتضمنت صورة هذا العتاب مصالح شتى، وفي الباطن لا عتاب وإنما ناب الحبيب عن حبيبه في المخاصمة لا غير.

قال: ولا ينبغي لأحد أن يظن بالنبي ﷺ أنه كان لا يعلم الصادق من الكاذب من المعتذرين، وكيف يخفى ذلك عليه والمفتوح عليه في هذا الزمان يعلم الصادق والكاذب

---

(١) تقدم.

منهم في ذلك الزمان وأهل الفتح أجمعون إنما نالوا ما نالوا بمحبته ﷺ فسقوا بمقدار شعرة من نوره ﷺ وقد سبق في «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ» كيف كان علم النبي ﷺ؟!.

* **قلت**: وهذا التقرير في الآية أحسن ما قيل فيها عند من تأمل كلام المفسرين.

وقد قال البيضاوي، عفا الله عنا وعنه: ﴿عَفَا اللهُ عَنْكَ﴾ [التوبة:٤٣] كناية عن خطئه في الإذن، فإن العفو من روادفه.

قال شيخ الإسلام زكريا في «حاشيته»: تبع فيه الزمخشري، قال الطيبي: أخطأ الزمخشري في هذه العبارة خطأ فاحشًا، ولا أدري كيف ذهب عنه وهو العلم في استخراج لطائف المعاني أن في أمثال هذه الإشارات، وهي تقديم العفو، إشعارًا بتعظيم المخاطب وتوقيره وتوقير حرمته، وهو كما قال؛ لأن مثل ذلك لا يقتضي تقدم ذنب، بل يدل تصديره على التعظيم، كما تقول لمن تعظمه: عفا الله عنك ما صنعت في أمري، ورضي الله عنك ما جوابك عن كلامي؟

ولهذا قال التفتازاني: ما كان ينبغي للمصنف ـ يعني: الزمخشري ـ أن يعبر بهذه العبارة الشنيعة، بعدما راعى الله مع رسوله تقديم العفو وذكر الإذن المنبئ عن علو المرتبة وقوة التصرف، وإيراد الكلام في صورة الاستفهام، وإن كان القصد إلى الإنكار على أن قولهم: عفا الله عنك قد يقال عند ترك الأولى والأفضل، بل في مقام التبجيل والتعظيم مثل: عفا الله عنك ما [صنعت][1] في أمري. انتهى.

وقال الحافظ السيوطي في «حاشيته»: تبع في هذه العبارة السيئة الزمخشري.

وقد قال صاحب «الانتصاف»: هو بين أمرين:

إمّا ألّا يكون هذا المعنى مرادًا فقد أخطأ، أو يكون مرادًا، لكن كنى الله عنه إجلالاً ورفعًا لقدره، أفلا تأدب بآداب الله تعالى، لا سيما في حق المصطفى ﷺ ثم نقل كلام الطيبي والتفتازاني، ثم قال: وقال [القاضي عياض][2] في «الشفاء»: هو استفتاح كلام بمنزلة:

---

(١) في (ب): فعلت.

(٢) في (ب): البيضاوي، والمثبت هو الصواب.

أصلحك الله وأعزك الله.

وقد ألف في هذا الموضع راداً على الزمخشري الصدر حسن بن محمد بن صالح النابلسي كتابًا سماه «جنة الناظر وجنة المناظر في الانتصار لأبي القاسم الطاهر ﷺ» وبهذه النكتة وأمثالها نهى أهل الدين والورع عن مطالعة «الكشاف» وإقرائه، وقد ألف في ذلك تقي الدين السبكي كتابًا سماه «سبب الانكفاف عن إقراء الكشاف» فانظره في تلك الحاشية فقد نقله برمته، والله تعالى أعلم.

ـ **وسألته** ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء:١٥] ما المراد بالتعذيب المنفي، هل في الدنيا أو في الآخرة؟ وهل بلوغ الدعوة شرط فيهما كما تقتضيه الآية؟ أو ليس شرطًا كما دلت عليه أحاديث المعتوه ومن في معناه ممن لا يفهم الخطاب، فإنه يمتحن يوم القيامة بنار يؤمر بدخولها، فإن أطاع دخل الجنة، وإن عصى دخل النار.

فقال ﷺ: بلوغ الدعوة شرط في التعذيب الواقع في الدنيا، بنحو الخسف والرجم وأخذ النصيحة، وغير ذلك مما عذبت به الأمم السابقة العاصية لرسلها، فقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥] أي: وما كنا معذبين أمة بخسف ونحوه حتى يجيئها رسولها، وتقوم حجة الله عليها، وأمّا عذاب الآخرة فلا يتوقف على بعثة ولو توقف على بعثة لم يدخل أحد من يأجوج ومأجوج النار، مع أنهم أكثر من يدخل جهنم.

فقلت: والحديث الذي ورد أنه ﷺ ذهب إليهم ليلة الإسراء، فدعاهم إلى عبادة الله وتوحيده فأبوا، فهم في النار مع من عصى من ولد آدم.

فقال ﷺ: لم يكن ذلك، قلت: وكذا قال الحفاظ من أهل الحديث: إن الحديث السابق في سنده نوح بن أبي مريم أبو عصمة الضبي الجامع الوضاع، قال فيه: ابن حبان إنه جامع لكل شيء إلا الصدق.

* **قلت**: ولم أرد أن أطول بذكر أحاديث المعتوه ومن في معناها، ولا بما قاله أئمة التفسير في تفسير الآية الكريمة، ولا بما قاله فيها أيضًا فحول علماء الأصول؛ لأن الغرض جمع كلام الشيخ ﷺ ولولا كثرة الجهل في الناس لاقتصرت عليه مجردًا، ولم أورد ما يدل له من الأحاديث ونحوها، والله تعالى أعلم.

ـ **وسألته** ﷺ عن سبب التغيير بقوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير:٢٢] في حق النبي ﷺ وقوله في حق جبريل: ﴿رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [التكوير:١٩] إلى قوله: ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير:٢١].

فقال ﷺ: القرآن ينزل على النبي ﷺ من نور الحق، وإذا عبر ﷺ أخذت العبارة من الحالة الغالبة على ذات النبي ﷺ وهي إمّا تواضع أو غيره، وهي في هذا المقام تواضع منه ﷺ مع جبريل بالتعظيم له واستصغار نفسه.

وقال لي ﷺ **مرة أخرى**: إنما ذكر قوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير:٢٢] لإثبات ما قبله، وتصحيح ما نسب لجبريل عليه السلام فكأنه يقول: وهذا الذي قلناه في حق جبريل، جاءكم به من عند من تعلمون صدقه وأمانته ومعرفته بما يقول، والمخبر إذا كان على هذه الصفة وثق بخبره، وليس هو بمجنون حين يتكلم بما لا يعلم، فالغرض من قوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ إدخال ما قبله في عقول المخاطبين لا تعريف حالة النبي ﷺ حتى يقال: إنه اقتصر في تعريفه على هذه الصفة السلبية، وأتى في تعريف حال جبريل عليه السلام بأوصاف عظام، والله تعالى أعلم.

ـ **وسألته** ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللهُ رَبُّنَا﴾ [الأعراف:٨٩] ما هذا الاستثناء من شعيب عليه السلام فإن الاستثناء يقتضي الشك وعدم الثبوت على الحالة التي هو عليها.

فقال ﷺ: [هذا][1] الاستثناء محض رجوع إلى الله تعالى، وذلك هو محض الإيمان؛ لأن أهل الفتح ولا سيما الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ يشاهدون فعل الله تعالى فيهم، وأنه لا حول لهم ولا قوة، وأن الفعل الذي يظهر على ذواتهم إنما هو من الله تعالى، فإذا استثنى صاحب هذه الحالة فقد غرق في بحر العرفان، وأتى بأعلى درجة الإيمان، والله تعالى أعلم.

ـ **وسألته** ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ [النجم:١-٢] لم أقسم على تصحيح رسالته ﷺ بالنجم مع أن النجم حجر من الأحجار؟

---

(١) في (ب): هل.

وأيّ مناسبة بينه وبين نور الرسالة حتى وقع به القسم عليها؟

فقال ﷺ: لم يقع القسم بالنجم من حيث إنه نجم وحجر، بل من حيث نور الحق الذي فيه، ونور الحق الذي فيه هو نور الاهتداء به في ظلمات البر والبحر، ثم بيّن ذلك بضرب مثال.

فقال: لو أن رجلين خرجا مسافرين فضلاً عن الطريق، وعدما الزاد والرفيق، حتى أيقنا بالهلاك، وعدما الخلاص والفكاك.

فأمّا أحدهما: فكانت له معرفة بالنجم الذي يهتدي به إلى جهة سفره، فرصده إلى أن كان الليل، فتبعه إلى أن بلغ غاية قصده ونهاية مراده، ونجّاه الله تعالى.

وأمّا الآخر: فلم تكن له معرفة بالنجم ولا كيف يهتدي به، ولا قلد صاحبه في معرفته، فهو لا يزال يتخطى في أودية الضلال إلى أن يهلك، وبعد هلاكه يرجع كالحُمَمَة بسبب ما يمر على ذاته من الحر والقر.

وهكذا حالة الناس مع الرسول ﷺ فهو بين هذين الرجلين، ففريق آمنوا به وصدقوه واتبعوه، فبلغوا به إلى جنة النعيم، وما لا يكيف من العطاء الجسيم، كما بلغ الرجل الأول إلى موضع الزاد والرفيق، فأصاب من النعيم والظل الظليل مراده وحاجته، وفريق كذبوه فلم يزالوا في سخط الله حتى ماتوا فأحرقتهم جهنم بحرها وزمهريرها، كما أحرقت ذات الرجل الثاني بالحَر والقَر، فوقعت المشاكلة بين المقسم به والمقسم عليه، وفي الحقيقة وقع القسم بفرد من أفراد نور الحق الذي يعرفونه على فرد آخر لا يعرفونه.

فقلت: فما المراد بقوله: ﴿إذا هوى﴾؟

فقال ﷺ: المراد زال عن وسط السماء؛ لأنه إذا كان في وسط السماء لا يهتدي به أحد؛ لأنه حينئذٍ واقف غير مائل إلى جهة من الجهات، فلا يتأتى به [استدلال][1]، والله تعالى أعلم.

* **قلت**: وللمفسرين ﷺ في الآية أقوال كثيرة، قد استقصاها نجم الدين الغيطي في تأليفه في الإسراء والمعراج وهو تأليف جليل، وإذا وقفت عليه علمت نباهة ما أشار إليه

---

(١) في (ب): الاهتداء.

الشيخ ﷺ ولولا الإطالة والخروج عن الغرض لجلبناها، والله أعلم.

وسمعته ﷺ يقول في قوله تعالى: ﴿الصَّمَدُ﴾ [الإخلاص:٢] هو اسم تسقى منه جميع المخلوقات: الشجر، والحجر، والمدر، وما فيه روح، وما لا روح فيه، والله أعلم.

وسمعته ﷺ يقول في أهل الأعراف: هم مثل سيدي فلان وسيدي فلان يشير إلى أهل الفتح الكبير من أهل العرفان ﷺ.

قال ﷺ: ولهم في الجنة منازل عالية يعلون بها على من في الجنة، مثل المنارة العالية التي بمدينة «فاس»، فإن أهلها يشرفون منها على من تحتهم، ومنازلهم العلية هي الأعراف، ضرب ﷺ هذا المثل تقريبًا.

* **قلت**: وفي أهل الأعراف أقوال ذكرها الحافظ السيوطي في «البدور السافرة» من جملتها: إنهم حمزة والشهداء، وهو قريب مما ذكره الشيخ ﷺ والله تعالى أعلم.

ـ وسألته ﷺ عن قوله تعالى: **﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾** [الفتح:١-٢].

فقال ﷺ: المراد بالفتح المشاهدة ـ أي: مشاهدته تعالى ـ وذلك أنه سبق في سابق علمه تعالى أن الخلق لا يعرفونه جميعًا؛ إذ لو عرفوه جميعًا لم تكن إلا دار واحدة، وقد قضى تعالى أنه له دارين، فحجب الخلق عنه تعالى إلا من رحمه الله، فمنعهم من مشاهدة الفعل منه تعالى ومن مشاهدة ذاته تعالى، فإنه لو كشف الغطاء عنهم لشاهدوه تعالى كما قال:

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد:٤].

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦].

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة:١٨٦].

﴿وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة:٧] وشاهدوا أفعالهم كلها مخلوقة له تعالى، وأنه هو الفاعل لها لا هم، وإنما هم ظروف وأجرام موضوعة وهو تعالى يحركها كيف يشاء كما قال تعالى: **﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾** [الصافات:٩٦] وعند ذلك لا يعصيه أحد قط؛ لأن المعصية لا تكون إلا من المحجوب الغافل الساهي عن ربه وقت معصيته.

قال: والمؤمنون وإن كانوا يعتقدون أن الله هو الفاعل فيهم المريد لأفعالهم، لكن هذا الاعتقاد يحضر ويغيب، وسببه الحجاب، فاعتقادهم مجرد إيمان بالغيب لا عن مشاهدة وعيان، ومن رحمه الله تعالى زال عنه الحجاب وأكرمه بمشاهدته تعالى، فلا يرى إلا ما هو حق من الحق وإلى الحق، فهذا هو المشار إليه بالفتح المبين.

فقلت: ومتى وقع؟

فقال: من صغره، فإنه ﷺ لم يحجب عنه تعالى.

فقلت: وهذا الفتح ثابت لكل نبي، بل ولكل عارف، فأيّ خصوصية فيه لنبينا ﷺ؟

فقال ﷺ: الفتح يختلف بالقوة والضعف، فكل على ما يطيق، والقوة التي في النبي ﷺ عقلاً وروحًا، ونفسًا وذاتًا وسرًا وحفظة لم تثبت لغيره، حتى لو جمع أهل الفتح كلهم من الأنبياء وغيرهم وجعلت القوة المشار إليها عليهم لذابوا جميعًا وتهافتت ذواتهم.

والمراد بقوله بـ«الذنب» في قوله تعالى: ﴿مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح:٢] سببه هو الغفلة وظلام الحجاب الذي في أصل نشأة الذات الترابية.

قال: وهذه الغفلة والحجاب للذنوب بمثابة الثوب العفن والوسخ لنزول الذباب عليه، فمتى كان ذلك الثوب على أحد نزل عليه الذباب، ومتى زال عنه ذلك الثوب زال عنه الذباب، فالثوب مثال الحجاب، والذباب مثال للذنوب، فمن سمى ذلك الثوب ذبابًا فهي تسمية سائغة.

فكذلك المراد هنا بـ«الذنب»: هو الحجاب، والمراد بـ«ما تقدم وما تأخر»: الكناية عن زواله بالكناية، فكأنه يقول: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح:١] ليزول عنك الحجاب بالكلية، ولتتم النعمة منا عليك، ولتهتدي وتنصر، فإنه لا نعمة فوق نعمة زوال الحجاب، ولا هداية فوق هداية المعارف، ولا نصرة أبلغ من نصرة من كانت هذه حالته.

فقلت: وهل هذا خاص بالنبي ﷺ؟ **فقال**: نعم.

فقلت: ولم؟ **فقال**: لأنه عين كل شيء.

فقلت: وكذلك تقول الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ في المحشر: ائتوا محمدًا ﷺ عبدًا غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

* **قلت**: وهذا الذي قاله الشيخ ﷺ من أنفس المعارف، وألطف اللطائف، وأليق بالجناب النبوي، وأبلغ في التنزيه والتعظيم، وأوفق للعصمة المجمع عليها، وأوفى بحق النبي ﷺ وأنسب بترتيب الآية وحسن سياقها، فجزاه الله عنا أفضل الجزاء.

وقد تكلم في الآية خلائق لا يحصون كثرة، وكان في عقولهم هذا المعنى الذي يشير إليه الشيخ ﷺ وما أظهروه، فكم حوم عليه السبكي الكبير، وكم طار في طلبه عقل أبي يحيى الشريف الشهير بـ«ابن أبي عبد الله الشريف التلمساني» حتى جعل في الذنب ثلاث مراتب، وفي المغفرة ثلاث مراتب.

أمّا الذنب: فله مصدر وهو النفس، وله حقيقة وهو المخالفة، وله أثر وهو الظلام الذي يكون في القلب من الذنب المشار إليه بقوله تعالى: ﴿**كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ [المطففين:١٤] وفي الحديث: «**إِذَا أَذْنَبَ الْعَبْدُ ذَنْبًا حَصَلَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ**»[1] قال: وتسمية المصدر والأثر ذنبًا مجاز من باب تسمية الشي باسم [سببه][2] في المصدر و[مسببه][3] في الأثر.

وأمّا المغفرة: فهي مأخوذة من الغفر الذي هو الستر، والستر على درجات:

الأولى وهي أقواها: ألّا يوجد الشيء أصلاً، فهو مستور في ظلمة العدم.

الثانية: أن يوجد ولا تكون لنا حاسة تدركه أصلاً.

الثالثة: أن يوجد وتكون لنا حاسة تدركه، ولكن يحول بيننا وبينه حجاب.

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٩٧، رقم ٧٩٣٩)، والترمذى (٥/ ٤٣٤، رقم ٣٣٣٤) وقال: حسن صحيح. والنسائى في الكبرى (٦/ ١١٠، رقم ١٠٢٥١)، وابن ماجه (٢/ ١٤١٨، رقم ٤٢٤٤)، وابن أبي الدنيا في التوبة (ص١٤٣، رقم ١٩٨ ط مكتبة القرآن)، وابن حبان (٧/ ٢٧، رقم ٢٧٨٧)، والحاكم (١/ ٤٥، رقم ٦) وقال: صحيح. والبيهقى في شعب الإيمان (٥/ ٤٤٠، رقم ٧٢٠٣ مكرر).

(٢) في (ب): مسببه.

(٣) في (ب): سببه.

فالشمس إن لم توجد في السماء أصلاً فهي مستورة في العدم، وإن وجدت وكان الناظر إليها أعمى فهي مستورة عنه لعدم الحاسة، وإن حال بيننا وبينها غيم فهي مستورة عنا به، وهي أضعف مراتب الستر، فإنها بعد زوال الغيم تبصر.

قال: فالمغفرة في حق النبي ﷺ تراد بمعنى العدم، والذنب في حقه ﷺ يراد بمعنى المصدر وبمعنى الحقيقة، ولا شك أن مغفرة كل منهما ـ أي: طيه عن العدم ـ تستلزم مغفرة الأثر بخلاف العكس، فلهذا لا يصح أن يكون الذنب في حقه بمعنى الأثر؛ لأن محو الأثر وطيه عن العدم لا يستلزم رفع حقيقة الذنب الذي هو المخالفة، ولأن محو الأثر مع بقاء حقيقة المخالفة ينافي العصمة، ولأنه يشاركه في هذا القدر لو كان مرادًا آحاد العصاة.

فإن أريد بالذنب في الآية الحقيقة التي هي المخالفة كانت «من» في قوله: ﴿مِنْ ذَنْبِكَ﴾ [الفتح:٢] بمعنى «عن» أي: ليغفر الله ما تقدم عن ذنبك وهو المصدر، وما تأخر عنه وهو الأثر، وإن أريد بالذنب الحقيقة والمجاز كان المراد بالمتقدم هو الحقيقة، وبالمتأخر هو الأثر المجاز، وفاته ـ رحمه الله تعالى ـ تفسير «الفتح» بما قاله الشيخ، وذلك هو روح المسألة، فإنه فسره بالقضاء ولم يبين المقضي به ما هو ليصح تفرع ما بعده عليه، كما لا يخفى ذلك على من طالع كلامه.

وقد ألف في المسألة الحافظ السيوطي جزءًا لطيفًا جمع فيه أقوال العلماء، وكذا الشريف المتقدم أبو يحيى بن أبي عبد الله الشريف التلمساني، وقد جمع بين هذين التأليفين الشيخ أبو العباس سيدي أحمد بابا السوداني في تأليف له في هذه المسألة ـ رحم الله الجميع بمنه وكرمه ونفعنا بهم وبعلومهم آمين ـ والله تعالى أعلم.

ـ **وسألته** ﷺ عن قوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ [الجن:٢٦].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان:٣٤].

وقوله ﷺ: «فِي خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللهُ»[1].

---

(١) حديث أبي هريرة: أخرجه أحمد (٢/ ٤٢٦، رقم ٩٤٩٧)، والبخاري (١/ ٢٧، رقم ٥٠)، ومسلم (١/ ٤٠، رقم ١٠)، وابن ماجه (٢/ ١٣٤٢، رقم ٤٠٤٤). وحديث عمر: أخرجه مسلم (١/ ٣٦، رقم ٨)، وأبو داود (٤/ ٢٢٣، رقم ٤٦٩٥)، والنسائي (٦/ ٥٢٨، رقم ١١٧٢١). وأخرجه أيضًا: الترمذي (٥/ ٦، رقم ٢٦١٠) وقال: حسن صحيح. حديث أبي هريرة وابن عمر معا: أخرجه النسائي (٦/ ٥٢٨، رقم ١١٧٢٢).

كيف يجمع بين هذا وبين ما يظهر على الأولياء العارفين ﷺ من الكشوفات والإخبار بالغيوب بما في الأرحام وغيرها، فإنه أمر شائع في كرامات الأولياء ﷺ.

فقال ﷺ: الحصر الذي في كلام الله تعالى وفي الحديث الغرض منه إخراج الكهنة والعرافين، ومن له تابع من الجن الذين كانت تعتقد فيهم جهلة العرب الاطلاع على الغيب ومعرفته، حتى كانوا يتحاكمون إليهم ويرجعون إلى قولهم، فقصد الله تعالى إزالة ذلك الاعتقاد الفاسد من عقولهم، فأنزل هذه الآيات وأمثالها، كما أراد الله تعالى إزالة ذلك الواقع ونفس الأمر، فملأ السماء بالحرس الشديد والشهب، والمقصود من ذلك كله جمع العباد على الحق وصرفهم عن الباطل، والأولياء ﷺ من الحق لا من الباطل، فلا يخرجهم الحصر الذي في الآية ونحوها.

قال ﷺ: ونحن نقول في هذا وأمثاله: إن الكلام يكون عامًا، ونشاشيب النور التي تكون فيه تخص بعض أفراده دون بعض، فالعارف إذا سمع اللفظ العام نظر إلى تلك النشاشيب، فإن رآها نزلت على فلان وفلان وزيد وعمرو وخالد وبكر فقط علم أنهم المرادون فقط دون غيرهم، فلا دخول له في الكلام وإن كان اللفظ عامًا، وإن نظر إلى النشاشيب فرآها نزلت على جميع الأفراد ولم يشذ منها فرد علم أن الجميع مراد.

قال: ونبينا ومولانا محمد ﷺ كان يعلم هذا قبل أن تخرج الآية من كلامه الشريف؛ لأن نور النشاشيب يسبق إلى قلبه ليعرف مراد الحق ﷻ.

* **قلت**: يشير ﷺ إلى العام الذي أريد به الخصوص، والعام الذي بقي على عمومه، لكن ﷺ لا يعلم اصطلاحًا وإن سبق أهل الاصطلاح إلى روح المعاني، حتى إنه لو أتاه أعلم علماء الظاهر، وأشدهم جدلاً، وأروغهم فيه، وأكثرهم اطلاعًا، وأراد معارضته فإنه لا يطيقه؛ لأن الشيخ ﷺ يسبقه إلى المعاني، فيسد عليه كل ثنية حتى لا يسع معارضه إلا الاستسلام والانقياد إلى قوله.

وكنت أقول له كثيرًا: يا سيدي، ما غبن فيك أحد مثلما غبن فيك علماء الظاهر، فإنهم لو خالطوك وجاروك في الكلام في أبواب العلم لاستنارت بصائرهم فيها، وانزاحت عنهم الإشكالات التي فيها، وقد كان عندي كتاب «التبصير» لأبي المظفر الإسفراييني في اثنتين وسبعين فرقة، فكان ﷺ يقول لي: اذكر لي شبه أهل الأهواء، وسلني عن عويصها،

فما ذكرت له قط شبهة إلا حلها في أول جوابه، ثم ترقى إلى علوم ومعارف أخر.

وتكلمت معه ﷺ في مرض موته في «برهان القطع والتطبيق» فسمعت منه فيه أسرارًا، وظفرت فيه بعلوم ما ذكرها قط علماء الكلام أبدًا، ثم علمني ﷺ توحيد الصوفية العارفين بالله، وقال لي: هذا الذي كانت عليه صحابة النبي ﷺ فقلت بعد أن علمت إشارته ﷺ: يا سيدي، لو علم الناس هذا الحق في التوحيد ما افترقت الأمة إلى ثلاثة وسبعين فرقة.

فقال: نعم، وهذا الذي أراد النبي ﷺ أن يكتبه لهم في كتاب عند وفاته ﷺ حتى لا تضل أمته من بعده أبدًا، ولنرجع إلى ما كنا بصدده فنقول: إني قلت للشيخ ﷺ: إن التخصيص في آية: ﴿عَالِمُ الغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ [الجن:٢٦] بالرسول يخرج الولي، فالمعارضة باقية.

فقال ﷺ: إنما يخرج غير الرسول، وأمّا الولي فإنه داخل في الآية مع الرسول، ثم ضرب مثالاً، وكان الوقت وقت حراثة.

فقال: لو أن كبيرًا من الكبراء مثل سيدي فلان أراد الخروج لينظر إلى أرض حراثته، ويختبر الفلاحين الذين فيها، فإنه لابد أن يخرج معه بعض غلمانه وأعز أصحابه عليه، فإذا بلغ إلى الموضع واطلع عليه وعلم ما فيه، فإن من يكون معه من الغلمان والأصحاب والأتباع ينالهم شيء من ذلك، فكذا الرسول لابد له من عبيد وخدم وأحباب وأصحاب من أمته، فإذا اطلع الرسول على غيب [أفلا][1] ينال أصفياء أمته شيء من ذلك؟.

ثم قلت للشيخ ﷺ: فإن علماء الظاهر من المحدثين وغيرهم اختلفوا في النبي ﷺ هل كان يعلم الخمس المذكورات في قوله: ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان:٣٤].

فقال ﷺ **وعن سادتنا العلماء**: وكيف يخفى أمر الخمس عليه ﷺ والواحد من أهل التصرف من أمته الشريفة لا يمكنه التصرف إلا بمعرفة هذه الخمس؟!.

---

(١) في (ب): فلابد أن.

ـ وكذا سألته عن قول العلماء في معرفة ليلة القدر أنها رفعت عن النبي ﷺ ولذا قال: «**اطْلُبُوهَا فِي التَّاسِعَةِ فِي السَّابِعَةِ فِي الخَامِسَةِ**»[1] ولو بقيت معرفتها عنده ﷺ لعينها لهم.

فقال ﷺ: سبحان الله، وغضب، ثم قال: والله لو جاءت ليلة القدر وأنا ميت، وقد انتفخت جيفتي وارتفعت رجلي كما تنتفخ جيفة الحمار، لعلمتها وأنا على تلك الحالة، فكيف تخفى على سيد الوجود ﷺ؟!.

ثم ذكر أسرارًا عرفانية في معرفة الخمس السابقة، وفي معرفة ليلة القدر، لا ينطق بها إلا عارف مثله، وفقنا الله لذكر شيء منها في هذا الكتاب، وقد عينها ﷺ لنا في أعوام مختلفة، فمرة عينها لنا في رجب، وعينها لنا في عام آخر في شعبان، وفي عام آخر في رمضان، وفي عام آخر في ليلة عيد الفطر، كان يعينها لنا قبل أن تأتي، ويأمرنا بالتحفظ عليها، وكان يقول لنا: إنها تنتقل، وكذلك كان يعين لنا ساعة الجمعة، ولعلنا نذكر شيئًا من أسرارها في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

وليكن هذا آخر ما أردنا جمعه من الآي التي فسرها لنا الشيخ ﷺ وبقيت آيات أخر بعضها سيأتي في أثناء الكتاب في المواضع التي تناسبه، وبعضها لم نستوعب فيها مراده ﷺ فلم أكتبها لذلك، وبعضها فيها أسرار عرفانية لا تكتب، والله يجعل ما كتبناه خالصًا لوجهه الكريم، وموجبًا لرضوانه العميم، وأن ينفع به من كتبه أو قرأه أو حصله أو سعى في شيء منه بجاه صاحب الكلام ﷺ ونفعنا به آمين، وجعلنا من أهل محبته في الدارين.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ٢٥٠، رقم ٨٦٧٠).